A N W A R H A M E D

رواية
NOVEL

أنور حامد

جنين 2002

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

ر
NOVEL

أنور حامد

جنين 2002

مكتبة كل شيء

facebook.com/the.Boooks

جنين ٢٠٠٢/ رواية
أنور حامد/ مؤلف من فلسطين
الطبعة الأولى، 2014
حقوق الطبع محفوظة

info@kul-shee.com
www/kul-shee.com

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف: حنين حامد/ فلسطين
رسوم الغلاف: عارف ذوابة، حنين حامد
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN: 978-614-419-376-1

facebook.com/the.Boooks

إهداء

إلى ذكرى جوليانو مير خميس ، ومخيم
جنين ، الذي أحبه ، حتى الموت . . . .

أنور

facebook.com/the.Boooks

تنويه

بما أنني استخدمت شخصية واقعية في بعض فصول هذه الرواية باسمها الحقيقي ، هي شخصية جوليانو مير خميس ، أستميح ذكراه عذرا أن سمحت لنفسي بالإقدام على هذه الخطوة انطلاقا من حقيقة أنه شخصية عامة ، كان لها تأثير قوي في حياة بعض أهالي مخيم جنين . إلى ذلك ، أود أن أنوه إلى أن أحداث الرواية ، بما فيها تلك التي تمس جوليانو ، هي من صنع الخيال بشكل عام ، مع استخدام بعض المعلومات عن جوليانو مير خميس وعلاقته بمخيم جنين ، استقيتها من مصادر مختلفة ، منها فيلمه بعنوان «أطفال آرنا» .

أنور

facebook.com/the.Boooks

الصفحة الاولى، الضياع الاول

كنت مقتنعة أن أبي أقوى واحد في الدنيا! أقوى من
بع والغولة في حكايات ستي ، أقوى من مدير مدرستنا
الأولاد الزنخين في الحارة مجتمعين . أقوى حتى من
ش ، المصارع الضخم الذي كنا نراه في التلفزيون . وحين
، الجنود باب منزلنا المتهالك في المخيم ، هم لم يطرقوه ، بل
وه بضربة واحدة من أعقاب بنادقهم ، قفزت من الفراش
ة على صرخاتهم تتردد في أرجاء البيت . ثم رأيت أبي
ج من غرفته ، فعاد الاطمئنان إلى قلبي . سوف يصرخ
م الآن صرخة تزلزل أركانهم ، وقد يصفع كبيرهم صفعة
ع وجهه خلعا ، فيرتعد البقية من الخوف . أبي أقوى واحد
الدنيا ، وسيريهم! ثم ، سمعته يتحدث إليهم ، لكن كلماته
تكن تدوي بل ترتجف ، وهو يرجو الضابط بصوت ذليل
ضابط يصرخ به ، ثم تختنق كلمات أبي ، أبي يبكي !!
!! أقوى واحد في الدنيا ، يبكي !! والطفلة ذات السنوات
سع تنكمش وتنكمش ، حتى يبتلعها كيان آخر ، مهزوز ،

facebook.com/the.Boooks

مشروخ ، بلا حماية . . أبي ليس قويا ، بل هو أضعف واحد في الدنيا !!

الآن لم أعد طفلة يا أبي ، لكني أحتاجك ، أكثر من أي وقت آخر . . أحتاجك كما أنت ، ضعيفا ، مغلوبا على أمرك ، لأني وحيدة في مواجهة كل هذا . حتى جدتي لم تعد معي . أنت وأمي تركتماني في عهدتها حين سافرتما إلى عمان لحضور زفاف عمتي . أخذتما حمودة ووفاء وأنا بقيت مع جدتي لأن علي واجبات دراسية كثيرة ، فالامتحانات على الأبواب . تركتماني في عهدة جدتي ، لكنها الآن أصبحت في عهدتي . . هذا كثير يا أبي ! كثير على عمري ، كثير على هشاشتي ، على فزعي من القادم . أبي ، اين أنتم؟ هل سأراكم؟ أم تعبر النافذة رصاصة أخرى ، ولا تخطئني هذه المرة؟

facebook.com/the.Boooks

الصحوة الأولى

تلك كانت الصفحة الأولى والصحوة الأولى ، الرعشة
لى والضياع الأول ، بيد أنها لم تكن المأزق الأول . تلك
نت الكلمات الأولى التي وضعت الفلسطيني الميت في
جهة اليهودي الحي ، الفلسطيني الحي في مواجهة اليهودي
ت .

المأزق الأول كان قبل سنوات من عثوري على كراستها
مرجة بدمائها ، وفي داخلها يوميات وخواطر كتبتها في أثناء
صار المخيم ، مخيم جنين . يا إلهي كم يبدو المشهد
وفا ! ! déjà vu . كم مرة قلبت صفحات الكتاب الذي يحوي
ميات آنا فرانك ، وتماهيت مع الهلع الذي لا بد كان ينتابها
ي أيامها الأخيرة . كم مرة فكرت فيها ونحن نزور متحف «ياد
شيم» مع طلاب مدرستي ، وحين كانت جدتي العجوز (جدة
لدي) تقص علينا كيف نجت من غرف الغاز؟ طرق باب بيتها
ي بودابست اثنان من رجال النازي المحليين ودعوها لمرافقتهم
ى معسكر لتجميع اليهود بالقرب من بودابست ، تمهيدا
قلهم إلى أوشفيتس ، لكنها أخبرتهم أنها معفاة بحكم سنها ،

facebook.com/the.Boooks

وصرخت تنادي ابنتها أستر لتحضر لها بطاقة الهوية حتى يتأكدوا من سنها . حين أحضرتها سألها أحد الشرطيين :

- كم عمرك يا صبية؟

أجابت ببراءة :

- ٢١ سنة

فقال لها الآخر ببرود : أنت لست معفاة إذن ، تعالي معنا .

ومنذ ذلك اليوم لم تعد ، ومنذ ذلك اليوم عاشت جدتي ، يهوديت ، يرافقها شعور قاتل : أنها سلمت ابنتها الشابة إلى غرف الغاز بيديها ، وشت بها ! كانت تجتاحها نوبات بكاء هستيري في كل مرة روتها لنا ، وكانت لا تكف عن روايتها . في إحدى تلك النوبات سقطت على الأرض فاقدة الوعي ، ولم تفق أبدا .

خالتي أستر ، أو هي جدتي ، لأنها شقيقة جدتي إيفا ، كانت بطلتي التي فدت والدتها بحياتها ، وآنا فرانك كانت حبيبة سني مراهقتي ، أما أريج الشايب فهي كابوس لياليّ المعذبة ، وشبح يطارد أمسياتي ، وقصة سأنقلها للعالم الذي لم يتعظ من يوميات آنا فرانك ، فهل هناك أمل أن يتعلم شيئا من يوميات أريج الشايب؟ لا أظن ، ولكني سأرويها على أي حال .

facebook.com/the.Boooks

المأزق الأول

مأزقي الأول لم يكن مرتبطا بخالتي ، ولا علاقة له بأنا
نك ، كما أنه سبق لقائي بأريج ، عبر يومياتها ، بسنوات . أنا
ـت فضوليا بطبعي وكثير الأسئلة ، ولم تكن الإجابات
ـتادة تقنعني بسهولة ، وكان هذا يثير أعصاب والدي ويزعج
ـدتي كثيرا .

أقيم في يافا مع عائلتي ، في منزل قديم مبني على الطراز
عربي . لم يقل لي أحد كيف أصبح هذا المنزل ملكنا ، ولمن هو
ـصلا ، لا في المدرسة ولا في البيت ، لكنني واظبت على
أسئلة .

- هل كان هذا المنزل لعائلة عربية يا أمي؟

- نعم

- وأين هم الآن؟ ولماذا نسكن في منزلهم؟

قالت أمي بنفاد صبر : لا تهتم ، هو الآن منزلنا وكفى .

لكن هذا لم يقنعني ، فتابعت أسئلتي المشاكسة : ولكن
أين من بنوا المنزل؟

facebook.com/the.Boooks

- أف ! هم ربما في لبنان ، اهتم بشئونك ، أليس عندك دراسة؟

عدت إلى دراستي ، ولكني كنت أعود للتفكير بالأمر بين الفترة والأخرى ، ثم قررت أن أسأل مدرس التاريخ .

- إسمع ! بعض سكان يافا من العرب اختاروا أن يغادروا لأنهم لم يريدوا أن يعيشوا مع اليهود ، بعضهم قطع الحدود إلى لبنان .

آها ! إذن غادروا إلى لبنان لأنهم لم يريدوا أن يقيموا مع اليهود في مدينة واحدة ، وهم بلا شك وجدوا عملا في لبنان واشتروا منزلا آخر ، ربما أفضل من هذا . بدا لي هذا التفسير مقنعا ، خاصة وأن الكثيرين من سكان يافا العرب اختاروا البقاء فيها ، وهاهم يعيشون بيننا ، فصاحب أقدم مخبز في المدينة ، مخبز أبو العافية ، عربي . ومحل البوظة ، فيكتوري ، الذي أعرج عليه في طريقي من المدرسة ، بشكل شبه يومي ، وأستمتع بمذاقاته الرائعة ، صاحبه عربي أيضا وكل العاملين فيه عرب .

ومطعم «العجوز والبحر» ، أحد أفضل مطاعم الأسماك في المدينة ، لا بد أن صاحبه عربي ، والعاملون فيه من طهاة ونادلين ، كلهم عرب .

لكن هذا التفسير ما لبث أن اهتز في إحدى زياراتي مع طلاب المدرسة إلى قرية تدعى «عين هود» .

facebook.com/the.Boooks

على إحدى التلال بالقرب من حيفا ، ووسط غابة من زيتون ، تقوم بيوت عين هود . تحتها البحر وقلعة صليبية تذكر التاريخ الدموي لهذه البلاد . ماذا فعلت الأديان بنا؟ ولماذا ختار الرب أن تنطلق دياناته الثلاث من هذه البقعة؟ الإسلام تحديدا لم ينطلق من هنا ، ولكنه ترك ما يكفي من المقدسات تأجيج الصراع .

الفن هو ما جلبني هنا ، لكن التاريخ جذبني أكثر بمجرد أن وجدت نفسي بين تلك البيوت الحجرية الجميلة ، وسط أشجار الزيتون والرمان .

هذه واحة للفنانين الإسرائيليين ، بفضل مارسيل يانكو ، الفنان الدادائي الذي أنقذ بفكرته العبقرية القرية من مصير مئات القرى العربية التي لم يدرسونا الكثير عنها في المدرسة ، ولم يتطوع والداي العزيزان بالإجابة عن أسئلتي حولها ، بل صداني أكثر من مرة . لكن في عصر الإنترنت لن تستطيع أن تمنع فتى فضوليا من البحث .

تحولت هذه القرية إلى معقل للفنانين ومحج للسياح الأجانب الذين تبهرهم التجربة ، وربما لا يتوقفون عند تناقضاتها .

أنا ، كالعادة ، توقفت عند الجزئية الأقل لفتا للانتباه في هذه اللوحة «الجميلة» . لا أدري ما الذي جرى لي حين رأيت تلك المرأة . لم تكن تختلف عن الكثير من النساء العربيات

facebook.com/the.Boooks

اللواتي صادفتهن من قبل، ترتدي تنورة طويلة وفوقها بلوزة بأكمام طويلة، بألوان مملة وتفصيل لا يلفت الانتباه كثيرا إلى أنوثتها، وتغطي رأسها بغطاء من طبقتين. لماذا طبقتين؟من يدري؟ أظن أنهم يسمونه «حجاب»، وارتداؤه منتشر بين النساء العربيات. كان الجزء الخارجي «بيج» والداخلي بنيا . الجزءان إذن يضطلعان بمهمة جمالية على ما يبدو، وكما خمنت من تناسق الألوان، مع أني لم ألاحظ أي جمالية في تغطية المرأة لشعرها. على كل حال ما شغل فكري في موضوع الحجاب ذي الطبقتين هو أمر آخر: ألا تحس تلك المرأة بالحرارة في هذه الساعة من هذا اليوم، في منتصف تموز، ودرجة الحرارة تقترب من الأربعين؟

منظر تلك المرأة حيث كانت تقف، تبيع المرطبات للسياح كان مألوفا ويليق بأي عربي في البلاد. في كل مكان سياحي هناك باعة عرب، وكل حديقة في رامات غان سيكون بستانيوها عربا، وكل محطة بنزين في طول البلاد وعرضها يعمل فيها عرب، وفي معظم المطاعم يعمل عرب، إما في المطبخ أو يقومون بخدمة الزبائن. ما الذي لفت انتباهي في تلك المرأة وهي تضطلع بدور العربي المألوف لنا جميعا؟ لماذا قررت أن أتحرش بها؟ لماذا تظاهرت أنني أريد شراء المرطبات وكان في حقيبتي كل ما يلزمني منها، مثلجا ومحفوظا في كيس خاص؟

facebook.com/the.Boooks

ببساطة لأن ملامح وجه تلك المرأة ، عينيها وزيها العربي ، منسجمة تماما مع اللوحة في الجوار : لا بد أنها تقيم في بيت حجري يشبه إلى حد كبير تلك البيوت التي تحولت إلى استوديوهات ، تشبهها أكثر مما يشبهها أولئك الذين يعملون في تلك الاستوديوهات ، من الرجال ذوي اللحى المشذبة الأنيقة والنساء الأوروبيات الشقراوات ، الذين ربما جاؤوا من Dohany utca في بودابست أو من حي Brooklyn في نيويورك .

لا بد أن حجارة الرحى تعني لها الكثير ، فربما كانوا يستخدمون مثلها حتى الآن ، حيث تسكن ، لهرس ثمار الزيتون . وشجر الرمان لن يحس بغربة في بستانها أينما كانت تقيم . أما غابة الزيتون التي تتناثر بين أشجارها البيوت الحجرية فهي بلا شك ترتبط معها بحبل سري .

لكن المفاجأة الحقيقية كانت حين تحدثت إليها وعلمت أن علاقتها بالمكان ليست شاعرية ومجازية فقط كما توهمت ، بل هي ، كما قالت لي ، من عائلة أبو الهيجا . زيارة سريعة إلى ويكيبيديا بأي لغة تشاء وتعرف أن معظم سكان هذه القرية الأصليين كانوا من تلك العائلة التي تعود جذورها إلى العراق ، مسقط رأس رأسها ، الأمير حسام الدين أبو الهيجا ، الذي جاء إلى البلاد مع حملة صلاح الدين الأيوبي . بالمناسبة ، هل تعرفون أن من اخترع محرك البحث «غوغل» يهودي؟ مسكين ، لم يكن يعرف ، ربما ، أنه سيساهم في هدم الكثير من الأساطير

facebook.com/the.Boooks

في هذه البـلاد ، وربما يلعنه سـيـاسـيـونا في سـرهم ، مع أنـهـم يشيدون بغوغل كإنجاز يهودي .

على كل حـال علمت من تلك المرأة أن الكثيرين من أهل «عين هود» ، التي كـانت وقـتـها تدعى «عين حوض» قد فـروا منها في أثناء الحرب ، واستوطن معظمهم مخيم جنين ، ومن تبـقى منهم في القـرية بعـد الحـرب أبعـد إلى قـرية أخـرى في الجـوار . طيب ، أهل يافـا الذين غـادروا اسـتـقـروا في لبنان أو غيره ، ولكن لماذا أبعد أهل «عين حوض»؟ وما معنى أن يتركوا بيوتهم لغيرهم ويسكنوا في قرية مجاورة؟ عرفتم الآن متى بدأ مأزقي؟ يوم زرت «عين هود» ، أو «عين حوض» ، كما سأسميها من الآن فصاعدا ، ولو ثارت أعصاب والدي .

هذه المرأة من سكان «عين حوض» الأصليين ، ولا تريد أن تفارقها ، تبيع المرطبات في قرية لعبت في ملاعبها وتسلقت أشجارها عندما كانت طفلة . أجبروا عائلتها على تركها لكنها عادت إليها تبيع المرطبات للسياح .

facebook.com/the.Boooks

غربة

جاءت المواجهة بأسرع مما توقعت . وصلتني الدعوة للالتحاق بالجيش ، فاكتأبت . استغرب والداي من ردة فعلي لوصول الدعوة ، فابن جارنا ، مثلا ، أراها لهما بفخر : سيلتحق بجيش الدفاع الإسرائيلي ، لحماية الوطن !

كانت الأسئلة قد بدأت تعبث بمسلماتي منذ فترة ، ولكني لم أكن قد اتخذت موقفا بعد . تسببت بأكثر من صدمة لمدرس التربية الوطنية بأسئلتي الكثيرة عن «العرب» . حتى أقراني أصبحوا ينظرون إلي نظرات غريبة . لكني لم أتخذ موقفا محددا بعد . لم تكن أفكاري من الصلابة والرسوخ بحيث تدفعني لاتخاذ موقف أدفع ثمنا له ، رفض الخدمة العسكرية مثلا ودخول السجن . لا أبدا . . إيماني بالوطن وحقنا بالوجود هنا كان بديهيا ، لكني لم أفلح في الوصول إلى حالة استبعاد الآخر تماما من المعادلة ، أسوة ببقية أصدقائي وأفراد عائلتي وربما معظم سكان هذه البلاد من اليهود .

كنت مرة في زيارة إلى صديقتي شوشانا التي تقيم عائلتها في كيبوتس قريب من القدس . بيوت الكيبوتس ليست مثل

facebook.com/the.Boooks

بيتنا في يافا ، بل هي حديثة البناء ، على الطراز الأوروبي ، وبذلك لم تثر بي علامات استفهام . ولكن حين خرجت مع شوشانا إلى مزرعة على أطراف الكيبوتس ، حيث كان بعض العمال العرب يعملون ، رأيت بقايا بيوت قديمة ، ينام فيها العمال الذين لا يعودون إلى منازلهم في الضفة الغربية في نهاية يوم العمل .

لفتت تلك البيوت انتباهي لأنها تشبه في طرازها البيوت الحجرية في «عين حوض» . سألت شوشانا فقالت ببساطة غريبة : لا بد أنها بيوت العرب .

سألتها : وأين ذهب أولئك العرب؟

قالت ضاحكة : ها هم أمامك ، يفلحون الأرض ، ألا ترى؟

لكني لم أر في الأمر ما يدعو للضحك .

توجهت إلى شاب في الثلاثين كان يقطف الخيار مع زميل له ويرصه في صناديق خشبية . استجمعت كل ما أعرف من اللغة العربية وسألت : ممكن خيارتين ، لي ولصديقتي؟

نظر إلي باستغراب ، وأجاب بلغة عبرية سليمة :

- تفضل . أنت من الكيبوتس ، أليس كذلك؟ الخير خيركم !

تناولت خيارتين أعطيت واحدة لشوشانا وبدأت أقضم خيارتي بشهية . أمسكت شوشانا بيدي وسحبتني قليلا ، لكني لم أستجب .

facebook.com/the.Boooks

- مالك؟

- هل يمكن أن نبقى قليلا؟

- لماذا؟

- أريد أن اتحدث إليهم .

- إلى العرب؟

سألت باستغراب

- نعم

- عن ماذا؟

- لا شيء محدداً .

هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت : على كيفك .

بدأت أتودد إلى العامل الذي طلبت منه الخيار ، واسمه توفيق ، ساعدته في القطف قليلا ، ثم سألته : من أين أنت؟

- من الضفة .

- هل تسافر كل يوم إلى الضفة بعد نهاية العمل؟

- لا ، ننام هنا ، في هذا البيت .

وأشار إلى بناء متهالك من الحجر .

أردت أن ألتقط طرف الخيط

- هذا بناء قديم ، أليس كذلك؟

لكزتني شوشانا : تعال يلا ، ماذا يعنيك من هذه الخرابة؟

- انتظري قليلا .

سألت توفيق : لمن هذا البيت؟

facebook.com/the.Boooks

تلفت حواليه ولم يجب ، ولاحظت أن الخوف بدأ ينتاب ملامح وجهه .

- من بناه؟ لا تخف ، قل لي !

نظر في عيني بتحد وقال : جدي .

وكأنه يلقي في وجهي بقنبلة .

صرخت به شوشانا : ماذا تخرف؟!

أما أنا فأحسست أنني عثرت على كنزي ، قلت لها : أتركيه ، أريد أن اعرف كل شيء .

توجهت إليه بالسؤال : وأين ذهب جدك؟

- هو الآن يعيش في مخيم الجلزون في الضفة الغربية ، غير بعيد من هنا ، لكن كانت هنا قرية قبل الحرب .

- قرية عربية؟

بدأ إحساسي بالإثارة يتفاقم ، كذلك لاحظت أن الفضول بدأ يتسلل إلى شوشانا .

- نعم ، قرية عربية .

- ما كان اسمها؟

- صوبا ، مثل الكيبوتس .

وجهت لتوفيق بضعة أسئلة أخرى ، وكذلك فعلت شوشانا . كان لاهتمامها بالموضوع وقع طيب علي . لم أعد وحيدا الآن بين أقراني ، انتقلت العدوى ، عدوى الرغبة بالمعرفة ، إلى شوشانا ، وهذا أسعدني . .

facebook.com/the.Boooks

وداع وأسئلة

لا مفر ، حان الموعد ، وسألتحق بإحدى الثكنات في الشمال ، بالقرب من الحدود اللبنانية . هذا المساء سنحتفل بافتراقنا : جميع الأصدقاء الذين سيلتحقون بالجيش ، كل في ثكنة مختلفة ، سيلتقون هذا المساء في مطعم «العجوز والبحر» ، على الشاطئ ، شاطئ يافا . أنا من اختار المكان ، ولم أصادف معارضة من أحد ، لأن للمطعم صيتا ممتازا في المدينة ، سوى بعض التندر حول اهتمامي الملفت للانتباه بالعرب ، فمالكو المطعم والعاملون فيه عرب ، حسب ما أعرف . ستأتي شوشانا أيضا . كنت أتمنى لو التحقنا بالثكنة نفسها ، ولكن الحظ لم يحالفنا . بدأ الأصدقاء يتندرون بأني «لوثتها» بهذا الاهتمام بالعرب . هي أيضا بدأت تطرح أسئلة حول أشياء كانت تبدو لها طبيعية في الماضي .

كان الجو رائعا ، وطلبنا أن يعدوا لنا مائدة على الشرفة . ما إن جلسنا إلى المائدة حتى هرع إلينا أكثر من نادل بأباريق زجاجية مليئة بعصير الليمون المثلج . ثم توالت صحون المقبلات .

facebook.com/the.Boooks

- لكننا لم نطلب أيا من هذا !

قالت شوشانا

- هذه المقبلات مجانية .

أجاب «دوف» ، وهو من زبائن المطعم الدائمين .

انشغلنا بتذوق الحمص والأفوكادو والمقالي المشكلة والسلطات ، كان على المائدة ما لا يقل عن عشرين صحنا مختلفا .

- كيف بربك يربحون شيئا؟

تساءل شلومو مستغربا

- لا تقلق! هؤلاء العرب يتقنون البيزنس

أجاب دوف .

شوشانا تتطلع إلى البحر ، لا أدري بماذا تفكر .

- الآن وقت الأكل يا عزيزتي ، كلي قبل أن يجهزوا على السفرة ، وأنت مشغولة بتأمل البحر .

- لا عليك ، هناك ما يكفي من الأكل .

- ولكن ما بك؟

- أبدا ، الطقس جميل والبحر هادئ . ونحن نجلس هنا نلتهم مأكولات لذيذة ، بشهية .

- إذن؟

- هل كان يجب أن نولد هنا؟

كان وقع سؤالها مفاجئا ، ولفت انتباه البقية

facebook.com/the.Boooks

- ماذا تعنين؟

سأل دوف

- هناك بلاد في هذا العالم ليس على من هم في مثل سننا فيها أن ينتقلوا من هذه الأجواء الجميلة إلى المعارك .

ردت نورا بعصبية : لكن تلك البلاد ليست مهددة بالإرهاب من كل جانب

علق دوف : إذا كنا نريد أن تعيش ونستمتع بهذه اللحظات يجب أن يقوم البعض «بتأميننا» .

- تأميننا؟

تساءلت

- نعم ، كما في المعركة ، حين تكون مشغولا بمهمة ما على بعض أفراد الفرقة تأمينك بالسلاح .

- وهل يجب أن تكون حياتنا معركة دائمة؟

تساءلت بحزن

ردت نورا بعصبيتها السابقة نفسها : وهل معنا خيار؟ هل يسألنا العرب رأينا حين يهاجموننا؟ هذه حياتنا ، وعلينا أن ندافع عنها .

قالت شوشانا معتذرة : أنا آسفة يا جماعة ، عودوا إلى ملذاتكم . متى نطلب الأكل؟

ما لبث أن جاء نادلان بقوائم الطعام . طلبنا أسماكا مشوية ومقلية وقريديس ، والكثير من البيرة . . حين انتهينا من

facebook.com/the.Boooks

الأكل بدأنا بالغناء . في نهاية السهرة أحضروا لنا الشاي بالنعنع ونوعا من الحلوى العربية .

غادرنا المطعم بعد منتصف الليل . تفرقنا كل في اتجاه . .

بقيت شوشانا معي وتمشينا قليلا على الشاطئ ثم ودعتها . حين ضممتها همست في أذني : لماذا ولدنا هنا؟

لم أجبها . لم أكن أملك إجابة . هذا السؤال تحديدا لم يخطر ببالي من قبل . لم يكن بين الأسئلة الكثيرة التي اعتدت أن أطرحها بين فترة وأخرى .

facebook.com/the.Boooks

تعبئة

التحقت بالثكنة . كانت الحدود اللبنانية على مرمى حجر . كنت أرى قرى الجنوب اللبناني بسهولة . الطبيعة هناك لا تختلف عنها في شمالي إسرائيل . ولماذا تختلف؟ فهي بقعة طبيعية واحدة . الطبيعة لا شأن لها بالسياسة .

مرت الأيام الأولى بسلام ، تدريب شاق ومرهق ، وهذا كل ما هناك . ثم بدأت عملية تعبئة نفسية مكثفة . العمليات الانتحارية في إسرائيل لا تتوقف ، وبصراحة لا يختلف موقفي منها عن موقف أي إسرائيلي . إنهم يقتلوننا بدون تمييز ، يفجرون المطاعم والبارات والحافلات ، يسقط أطفال ونساء ومسنون . في آخر التفجيرات الذي وقع في نتانيا قتل أحد أصدقائي . كان يحضر حفل زفاف ابن عمه في أحد الفنادق على الشاطئ . كان معظم الحضور من أصول مجرية ، كما عائلتا العروسين . أصابني مقتل لاسلو بصدمة . كل العمليات السابقة كانت تصدمني ، مقتل المدنيين الأبرياء يحزنني إلى أبعد الحدود ، ولكن حين يمسك الأمر بشكل مباشر يصبح إحساسك بالحزن أقسى . لاسلو كان صديقي وزميل الدراسة .

facebook.com/the.Boooks

كنا نذهب معا إلى السينما ، وحدث أن وقعنا في غرام الفتاة نفسها ،لكنها لم تحب أيا منا ووفرت علينا المواجهة المحرجة . في الفترة الأخيرة بدأت أثير اهتمامه بالعرب ، بدأ بدوره يطرح أسئلة حول بعض الأمور المربكة . بصراحة هذه التفجيرات لم تساعدني . هذا القتل بدون تمييز صعب أن أجد له مبررا . ويبدو أن قيادة الجيش مقدمة على عملية كبيرة ، فالتعبئة النفسية قائمة على قدم وساق ، وبشكل شبه يومي . كان آخر ما شاهدنا فيلماً عن عملية نتانيا : القتلى والجرحى ، المأتم في نهاية العرس . مشاهد مأساوية . أخمن أننا مقدمون على عملية عسكرية قريبا ، ولسوء الحظ فقد أنهيت عمليات التدريب وأنا الآن معد للمشاركة في أي عملية عسكرية قادمة . يا ربي ، ماذا أعمل؟ حين التحقت بالخدمة كنت شبه مصمم على عدم الخدمة في الضفة الغربية . لا أريد أن أوقف الفلسطينيين على الحواجز ، لا أريد تفتيش أطفال ومسنين وإيقاف نساء حوامل . لا أقرأ الكثير في إعلامنا عن ما يجري هناك ،لكني اشتركت في قائمة مراسلات إحدى المنظمات اليسارية اليهودية التي ترصد مخالفات الجيش على الحواجز ، وما يصلني من تقاريرهم مذهل . في آخر رسالة تلقيتها قبل التحاقي بالخدمة يصفون كيف أوقفت امرأة حامل لساعات على أحد الحواجز ، ثم في النهاية وضعت مولودها هناك ، على الحاجز ، بدون أي رعاية طبية ، وسط صرخات الجنود وهدير السيارات العسكرية . هل

facebook.com/the.Boooks

ـذا ضـروري؟ لا أجـرؤ على طرح سـؤال كـهـذا على أقـراني ،
ـكنني أفكر فيه . أنا أفهم أن الحواجز تهدف إلى منع الإرهابيين
ـن الوصول إلى مدن إسرائيلية ، ولكنني أشك أن امرأة حاملاً
ـي شهرها الأخير هي من ستقوم بالعملية الانتحارية القادمة .
يقولون إن الفلسطينيين لا يتورعون عن استخدام الحوامل ، هذا
ـو كن «حوامل» أصلا ! ماشي ! يمكن فحص ما إذا كان حملها
حقيقيا أم زائفا بدقائق . ما لزوم إبقائها ساعات على الحاجز؟

كنت مصمما : لا خدمة على الحواجز ، حتى لو فرضوا علي عقوبات ، حتى لو انتهى الأمر بسجني . لكن من يستطيع ذلك الآن؟ من يستطيع الوقوف في وجه هذا «الإجماع الوطني»؟ هذه العملية الأخيرة في نتانيا كانت بشعة ، وأظن أن الرد لن يتأخر . كم هو احتمال أن أنجو من المشاركة؟ ضئيل جدا ، للأسف .

facebook.com/the.Boooks

إرهابيون

صدرت الأوامر بالاستعداد في الثانية فجرا . كنا في ثكنة قريبة من نتانيا . لا ، ليست العملية الكبيرة التي يعدوننا من أجلها منذ أسابيع . هي عملية روتينية لاعتقال إرهابيين في إحدى القرى القريبة من طولكرم .

انطلقنا كالسهام باتجاه العربات العسكرية التي كانت تنتظر ، الأوامر تأتينا عبر أجهزة اللاسلكي . أسلحتنا مستنفرة في أيدينا . أعصابنا مشدودة . عقولنا معبأة تماما ، نحن جاهزون للفعل . سنعتقل إرهابيين . سننقذ العشرات ، بل ربما المئات في شوارع القدس وتل أبيب .

– المجموعة أ ستطوق المنطقة ، المجموعة ب ستتوزع عند جميع المداخل المحتملة للمنزل وفي الحقل المحيط به ، المجموعة ج ستداهم المنزل وتعتقل المطلوبين .

أنا كنت ضمن المجموعة ج . سأكون ضمن الذين سيخلعون باب البيت بأعقاب الرشاشات ، وسنكون طبعا في مواجهة الخطر المحتمل لو أبدى المطلوبون مقاومة . أعصابي كانت مشدودة . هذه أول عملية أشارك فيها ، لكنها تبدو

facebook.com/the.Boooks

روتينية حسب الوصف وطمأنة الضباط .

اجتزنا الخط الأخضر ودخلنا الضفة الغربية . ظلام دامس يلف الحقول . الشوارع غير مضاءة . هدوء ، لا يقطعه سوى صوت عجلات مركباتنا والأوامر والتعليمات التي تأتي إلينا عبر أجهزة اللاسلكي . لا بد أن الإرهابيين نائمون الآن . سنباغتهم في فراشهم . الجميع نائم . سكون هذه البيوت القروية يشي باطمئنانها . لا تتوقع زيارتنا هذه . الناس يغطون في أحلامهم ، ربما يحلمون بأشياء جميلة ، لكننا سنوقظهم بعد قليل على كابوس . لا ، لم أكن أحس بتأنيب ضمير بسبب الإرهابيين الذين سيقعون في قبضتنا عما قريب . هم لا يحسون بأي تأنيب ضمير حين يحصدون أرواح أطفالنا في الحافلات التي يفجرونها . لكن ما ذنب السكان؟ النساء والأطفال والمسنين الذين لا يأخذ الإرهابيون رأيهم حين يقدمون على تلك العمليات؟ ما يعذبني أحيانا هو هؤلاء الذين لا ذنب لهم على الجانبين ، فكما يفجر الإرهابيون أبرياء في المطاعم والحافلات ها نحن نروع أبرياءهم في القرى النائمة . هذه الخواطر لم تكن مسموحة . أنا الآن لا أتحدث عن اللوائح العسكرية ، بل عن حالتي النفسية التي لا تلائم إطلاقا الجو المطلوب لتنفيذ عملية كهذه . ممنوع أن تتسرب أي ذرة شك لجدوى ما نقوم به . يجب أن أقدم على تنفيذ المهمة بإصرار وتصميم يليق بعسكري في جيش الدفاع .

facebook.com/the.Boooks

- نحن الآن نقترب من الهدف . سندخل قرية كفر اللبد عن طريق عنبتا ، نحن الآن عند مشارف عنبتا . سننحرف يمينا بعد قليل ، ونصعد باتجاه كفر اللبلد . القرية قائمة على رأس جبل . هناك مستوطنة قريبة في الجوار هي «عيناف» . منزل الإرهابيين يقع في نهاية القرية من الناحية الأخرى . هناك احتمال أن يبلغوا بوصولنا ، قد يلاحظ البعض أثناء عبورنا شوارع القرية ، وينبههم . قد نتعرض لإطلاق نار . كونوا في حالة تأهب . أصابعكم على الزناد منذ الآن .

هذه التعليمات كانت تأتينا عبر جهاز اللاسلكي .

القرية نائمة . بيوتها وحقولها يلفها ظلام دامس . توجهنا إلى بيت المختار أولا . طرق أحد الضباط باب بيته بينما بقينا ننتظره على بعد عشرين مترا . ما هي إلا دقائق حتى رأينا الضابط يخرج من المنزل برفقة رجل مسن يرتدي ثوبا فلاحيا تقليديا مخططا فوقه سترة ، ويضع على رأسه كوفية وعقالا . رافق الضابط إلى العربة التي كانت في المقدمة . كنا نعرف مكان البيت على وجه التقريب ، لكن مرافقة المختار كانت ضرورية ليدلنا على المنزل بالضبط . الخطأ ضار جدا في عمليات كهذه . كذلك فإن وجود المختار معنا ربما يطمئن السكان .

- توزعنا حسب الخطة . حين اقتربنا من المنزل قفز أفراد الفرقة ج من المركبات وركضوا باتجاه المنزل . لم نطرق الباب .

facebook.com/the.Boooks

ىنصر المفاجأة كان ضروريا .

قبل أن نخلع الباب كان أفراد الفرق الأخرى يطلقون لنار في الهواء . زخات كثيفة من الرصاص مزقت سكون لليل . ثم ، دفع خمسة منا باب المنزل بأكتافهم في الوقت فسه ، وكسرناه بمنتهى السهولة . بدأ قائد المجموعة بالصراخ االعربية :

– سلموا أنفسكم . البيت محاصر من جميع الجهات . ضرغام ومصدق . أنتما مطلوبان للسلطات . أخرجا . وأيديكما رفوعة . البيت محاصر . لا جدوى من المقاومة .

فجأة سمعنا عويل نساء وصراخ أطفال . داهمنا الغرف . في الغرفة التي دخلتها كانت هناك امرأة عجوز تحتضن طفلا في الخامسة ، لا بد أنه حفيدها . الهلع واضح على وجهها ، والطفل يبكي بهستيريا وهي تهدهده وتحاول تهدئته ، لكن بلا جدوى . بقي اثنان من الجنود في الغرفة وخرج الباقون للبحث في غرف أخرى . كان هناك عجوز في السبعين ، كان يتحدث إلى المختار :

– والله ما شفناهم من سنة .

كانت يداه ترتجفان .

قال له الضابط : أنت كذاب . وصلتنا إخبارية أنهما كانا هنا بالأمس ، وأنهما يترددان على المنزل كل فترة ، وأحيانا ينامان هنا .

facebook.com/the.Boooks

قال العجوز بصوت ذليل : والله يا خواجة زي ما بقول لك . إلنا سنة ما بنعرف عنهم اشي ، طيبين ولا ميتين .

صرخ الضابط : فتشوا البيت .

بدأنا بنبش محتويات الغرف ، الفراش ، الأسرة ، الدواليب ، لم نبق شيئا . ثم صعدنا إلى السطح بحذر . لم يكن هناك أحد . نزلنا ، قمنا بجولة في محيط المنزل ، بلا نتيجة .

قال الضابط للعجوز : أنت ، تعال معنا .

- حاضر . خليني أغير ملابسي بس ، خمس دقايق .

- ما فيش لزوم ، تعال معنا ، يلا .

بدأ الرجل يرجو المختار السماح له بتغيير ملابسه ، كان في ملابس النوم ، ولا أدري لماذا أصر الضابط على أن يرافقنا مرتديا ملابس النوم . أخيرا وافق الضابط وأعطاه مهلة لا تزيد على خمس دقائق لتغيير ملابسه .

غادرنا ومعنا الغنيمة : إرهابي فوق السبعين ، يرتعد من الخوف ، وتركنا خلفنا عويل نساء وصراخ أطفال . هل هؤلاء هم من يروعون دولتنا العتيدة؟

facebook.com/the.Boooks

اجتياح

لا مفر . حصل ما كنت أخشاه . اتخذ القرار باجتياح الضفة . أبلغوني قبل التحرك بساعات . تمكنت بصعوبة من الوصول إلى شوشانا . كانت متوترة ، بل خائفة . لم نتحدث طويلا ، حين ودعتني قالت : انتبه لنفسك . ليحرسك الله .

ثم انقطعت المكالمة . بدأت بإعداد نفسي للانطلاق ، وحين جاءت الإشارة توجهنا إلى المركبات . سنتجمع في قاعدة عسكرية في شمال الضفة الغربية بالقرب من الخط الأخضر ، لا أعرف بالضبط أين ستكون وجهتنا .

كنت في غاية التوتر ، لكن لم يكن هناك وقت للتفكير ، بسبب حالة التأهب الجماعي وسرعة تنفيذ التعليمات .

أنا كنت أتبع وحدة المشاة ، لذلك فإن دوري القتالي سيكون وجها لوجه مع الفلسطينيين .

صعدنا المركبات وتوجهنا إلى قاعدة التجمع . كانت التوجيهات تأتينا عبر جهاز اللاسلكي الذي لم ينقطع صوته طوال الطريق .

هذه ستكون أول مشاركة لي في عمليات قتالية ، ورغم

facebook.com/the.Boooks

أني حصلت على تدريب أكثر من كاف إلا أني كنت أحس بشيء من الخوف .

حين وصلنا القاعدة أبقونا في المركبات ، يبدو أننا سننطلق في الحال .

ما أصعب الانتظار والتأهب ، حتى على الجندي . لم ننتظر طويلا على أي حال ، جاءت التعليمات أن وجهتنا ستكون جنين ، مخيم جنين تحديدا . قيل لنا إنه بؤرة الإرهاب في الضفة . الكثيرون ممن نفذوا عمليات إرهابية داخل إسرائيل انطلقوا من المخيم . المطلوب احتلال المخيم وتطهيره ، إلقاء القبض على الإرهابيين أو قتلهم . هكذا كانت التعليمات .

جاءت الإشارة أخيرا ، وانطلقنا . وصلنا مشارف المخيم خلال أقل من ساعة ، وحاصرناه . أخذنا مواقعنا عند أحد المداخل وانتظرنا .

facebook.com/the.Boooks

مهمة في المخيم

قضينا الساعات الأربع والعشرين الأولى في حال ترقب وانتظار للتقارير الاستخباراتية المبنية على طلعات الطائرات والمروحيات وما يمدنا به الشين بيت . المخيم يعج بالمسلحين ومداخله ملغمة . أي محاولة لاقتحامه ستكون غاية في التعقيد ، وتتطلب مجموعة من عناصر قسم الهندسة ومجموعة أخرى من المشاة للحماية والتغطية . هذا يعني أنني سأشارك في العمليات الأولى ، كوني من وحدة المشاة .

كان يفترض أن أكون متوترا ، لكن الأدرينالين والإحساس بالانتماء إلى جماعة قوية ومدججة بالسلاح ، جعلني لا أحس بالكثير من التوتر ، بل أستطيع أن أقول إنني كنت أحس بأمان نسبي . سندخل المخيم ونعتقل المطلوبين ثم نغادر . آمل أن لا يستغرق هذا وقتا طويلا .

تحدثت إلى أهارون ، من فرقة الهندسة ، قال لي إن المهمة روتينية وبإمكاني أن أطمئن .

أخيرا جاءت ساعة الصفر للمهمة الأولى .

توجهنا : خمسة من فرقة الهندسة وسبعة من المشاة ،

facebook.com/the.Boooks

كنت واحدا منهم . في السادسة والربع صباحا انطلقنا نحو الهدف ، لم يكن الفجر قد انبلج بعد . تقدمنا بحذر متسترين بالظلام . لم تطلق علينا رصاصة واحدة ، بدأ خبراء المتفجرات عملهم وسط سكون مريب . فجأة لمحت طفلين ينسلان من أحد الأزقة . أطلق زملائي وابلا من النيران ، أما أنا فصرخت : إنهم أطفال !

وبخني قائد المجموعة : أسكت أيها الغبي ! هؤلاء مقاتلون ـ خلال لحظات تأكد ما قاله . أطل أحدهما برأسه وقذفنا بشيء يشبه الكوع ثم اختفى . انفجر الكوع أمامنا ، لكن لم يصب أي منا . بدأنا بإطلاق نيران كثيفة ، وعاد خبراء المتفجرات إلى عملهم . حتى الآن لم نتعرض لإطلاق نار ـ انتهى الزملاء من عملهم ، وجاءت الإشارة بالتقدم لاستكشاف مداخل المخيم . فجأة صرخ صوت من أحد الأزقة : الله أكبر !

ويبدو أنها كانت كلمة السر ، فقد فتحت علينا أبواب الجحيم . كنا مكشوفين أمامهم في الزقاق . سقط اثنان منا ـ تابعنا إطلاق الرصاص دون هدف . كان لديهم امتياز عنا ، فهم يروننا ونحن لا نراهم . نحن في زقاق مكشوف وهم لا بد مختبئون في البيوت المتهالكة . فضلا عن ذلك هم يعرفون المسالك جيدا . أصدر قائد المجموعة أمرا بسحب الجرحى . كان عددهم قد وصل إلى خمسة . كنت ممن طلب إليهم سحب

facebook.com/the.Boooks

الجرحى وبقي قائد المجموعة واثنان من رفاقنا يغطون انسحابنا .

أصيب اثنان آخران منا في أثناء الانسحاب . سقطا مع من كانا يحملان .

ماذا نفعل . هل نتركهم هنا؟

صرخت متسائلا

- تابع ! تابع ! لا تنظر خلفك ! إجر

جاءتني التعليمات

وصلنا مكان التجمع عند مدخل المخيم . ثلاثة فقط من بين الذين شاركوا في المهمة كانوا سليمين ، كنت أحدهم . لم أعرف مصير الجرحى ، وإن كنت واثقا أن جيش الدفاع لا يترك جرحى ولا قتلى في أرض المعركة . لا بد أنهم وجدوا طريقة لإحضارهم .

facebook.com/the.Boooks

نشطاء

قـمنا بمحـاولات أخـرى لم أشـارك بأي منهـا ، ولم ننجح بدخول المخيم . خسرنا حتى الآن سبعة من الجنود وجرح أحد عشر . صدر القرار بالقصف وعدم الإقدام على محاولة أخرى للتوغل قبل القضاء على المقاومة . لم أرتح للموضوع . المخيم مكتظ ، بيوته متراصة والمقاتلون مختبئون إما داخل البيوت أو بينها ، والقصف بهذا الشكل يعني القتل دون تمييز بين المدني والمسلح ، الطفل والشاب والمرأة والعجوز . ليس هذا ما تعلمناه عن أخلاقيات جيش الدفاع .

بدأنا باستـهـداف المناطق التي نقرر أنهـا مصـدر لإطلاق نيران ، ثم لم نعد نميز ، فالنيران كـانت تنهـمر علينا من كل جهة . هذه هي الحرب ، كنت أحاول أن أذكر نفسي . الحرب شيء بشع ولا مجال لتجميله ، لا يمكن إخضاعه لأخلاقيات ومبادئ إنسانية ، هي فعل غير إنساني أصلا . كذلك لا يمكن تطبيق قوانين الحياة السلمية على السلوك في الحرب . والأسوأ من كل هذا أن ليست هناك فسحة للتساؤل أو محاورة الضمير ، لا مكان للأسئلة في ساحة المعركة . إن لم تقتل ستقتل ، وأنا

facebook.com/the.Boooks

لم أكن أريد أن أعود إلى عائلتي محملا في صندوق .

فاجأتني مقاومة المخيم . من أين حصل هؤلاء على كل هذه الأسلحة؟ وأين ومتى تدربوا على استخدامها؟ وأين كانت عيون استخباراتنا؟ مرة أخرى أذكر نفسي أن عددا من الذين نفذوا عمليات في المدن الإسرائيلية خرجوا من هنا ، لأخرس أي صوت داخلي محتمل . لا مجال ، لا مجال ! تفكيري هنا لم يعد يختلف عن تفكير والدي أو أي من أقراني . توارت تماما تلك الأسئلة المحرجة ، وحل محلها شبه يقين بأن ما نقوم به مشروع ، دفاع عن أمن المدن الإسرائيلية .

مضى على وجودنا هنا أسبوع كامل . قصفنا للمخيم متواصل ، والمقاومة بدأت تخف ، لكنها لم تنقطع .

حاول متطوعون أجانب ، يتبعون الصليب الأحمر ومنظمات إغاثة إنسانية أخرى ، وبينهم نشطاء إسرائيليون ، أخذ إذن بدخول المخيم لإخلاء الجرحى . كان جواب القائد قاطعا : ممنوع ، حرصا على سلامتهم .

دخلت في نقاش مع إحدى الفتيات الإسرائيليات ، بدت لي متطرفة :

- هذه جريمة حرب ، هل تعرف ذلك؟

استفزني التعبير

- وتفجير فندق بارك في نتانيا ، هل كان جريمة حرب؟

صرخت بي : نحن حكومة ، هل تفهم؟ علينا مسؤوليات

facebook.com/the.Boooks

ثنائية وإنسانية . هل يجب أن نسلك سلوك فتيان طائشين متطرفين؟ هل نقارن أنفسنا بهم؟

حاولت الرد عليها ، جاء أحد الضباط وذكرني بأنه يحظر علينا التحدث إليهم .

لم ييأسوا . أصروا على البقاء ومحاولة إقناع القيادة . بقيت أراهم في المنطقة في الأيام التي تلت ، ثم اختفوا فجأة ، جميعهم . لا أدري أين ذهبوا . سألت أحد الضباط ، قال لي إنه يشك بأنهم سيحاولون التسلل إلى المخيم .

في نهاية اليوم بدأت جرافات كاتربلر كبيرة تصل إلى المكان . لم أفهم . سألت ، ولم أحظ بإجابة ، لكني أحسست بقلق . ماذا يعد قادتنا؟

facebook.com/the.Boooks

انتظار

هذا الانتظار مرهق للأعصاب . متى نقتحم المخيم وننتهي؟ المقاومة الآن خفت كثيرا ولا أدري لماذا لا تصدر الأوامر بالاقتحام . الجنود بدأوا يتململون .

هذا الصباح وصل فوج جديد من نشطاء ومتطوعي الصليب الأحمر . صرخت إحدى الفتيات ، أظنها سويسرية ، بلغة إنجليزية تشوبها لكنة ألمانية : هذا مخالف لقوانين الحرب ، لاتفاقية جنيف ولكل البروتوكولات الدولية . إسمحوا لنا بالدخول لإخلاء الجرحى .

أجابها القائد : لا نستطيع ، حرصا على سلامتكم .

تدخل شاب ، أظنه إسرائيلياً ، لأنه تحدث بلغة عبرية سليمة ، وإن كان بعض الناشطين الأجانب يتحدثون العبرية بطلاقة : لا شأن لكم بسلامتنا .

رد الضابط ببرود : بل هي مسؤوليتنا .

أجابت السويسرية ، ذات الشعر الأحمر : مسؤوليتكم هي سلامة المدنيين داخل المخيم ، الذين لا تسمحون لنا بإخلاء جرحاهم . سيموتون بسبب تعنتكم .

facebook.com/the.Boooks

سكت القائد ، ثم قال : انتظروا ، سأجري بعض المكالمات .

غاب نصف ساعة ، دخلت خلالها في نقاش مع النشطاء : أنتم تقصفون المخيم بشكل عشوائي ، وبداخله نساء وأطفال .

أجبت بما لقنته : لكن المسلحين يتحصنون بينهم .

رد الإسرائيلي ، أو من ظننته إسرائيليا ، بسخرية : أين تقترح أن يذهبوا؟ أن يأتوا إليكم للمبارزة وجها لوجه؟ هذا المخيم هو بيتهم ، وهم في بيتهم ، يدافعون عنه . أنتم الغرباء هنا .

لم أحر جوابا . ماذا أقول؟ هل أعيد تذكيره بسبب وجودنا هنا؟ لا فائدة . على كل حال عاد القائد ، وكان حاسما .

- لا دخول إلى المخيم ، وعليكم المغادرة .

- لن نغادر .

أجابت الفتاة

- سنعتقلكم .

- اعتقلونا إذن .

قالت بتحد

لم يرد الضابط ، ولم يتحرك النشطاء . كانوا حوالي عشرة ، معظمهم أوروبيون ، والبعض إسرائيليون .

بقوا معنا ساعة أخرى ، ثم بدأت أحس بحركة غير طبيعية في المكان . لم تصدر لي أية أوامر ، لكني أحسست أن شيئا يحدث . جاء بعض الجنود وأمسكوا بالنشطاء ، ووضعوهم

facebook.com/the.Boooks

في عربات عسكرية وغادروا بهم إلى مكان مجهول . أظن أننا نقترب من ساعة الحسم . بدأت الجرافات تدير محركاتها . يا إلهي ! هل سنجرف المخيم؟

facebook.com/the.Boooks

حارة الحواشين

صدرت الأوامر لمجموعة من عشرة أفراد ، كنت أحدهم ، بالتوغل في المخيم تحت جنح الظلام . كان الهدف استطلاع أزقة المخيم . المهمة خطيرة ، وكنا نتوقع أن يكتشفونا . أحسست بخوف حقيقي . هذه مهمة محفوفة بالمخاطر ، وقد لا أعود منها حيا ، أو قد أتعرض لإصابة ، أو أقع في قبضة المسلحين في أهون الأحوال .

كان علينا أن نتوغل عميقا في المخيم ، ونرصد المنافذ والأزقة ، بل كانت الأوامر تقضي أيضا بأن نبيد أي مراكز مقاومة قد نصطدم بها . كنا عشرة ، مدربين بشكل جيد ، وكنت الوحيد بينهم الذي لم يشارك بمعركة حقيقية ، إذا استثنينا عملة الاعتقال التي نفذنها في تلك القرية واقتحام منزل العائلة الفلسطينية البائسة . تلك لا يمكن اعتبارها معركة بأي شكل من الأشكال .

توقف القصف مؤقتا ، إذ لا يعقل أن يستمروا في قصف المخيم ونحن في داخله .

facebook.com/the.Boooks

تحركنا في الثانية فجرا . كنا نريد الوصول إلى حارة في وسط المخيم تدعى «حارة الحواشين» ، لأنها نقطة استراتيجية ، والسيطرة عليها تعني السيطرة على معظم أنحاء المخيم . طبعا لم يكن مطلوبا منا السيطرة عليها ، مجرد دراسة محيطها ، منافذها ، والأزقة التي تتفرع منها وتؤدي إليها .

انطلقنا بصمت ، أيدينا على الزناد ، جاهزين لإطلاق الرصاص في أي لحظة . سكون مخيف وظلام دامس . أحسست بوحشة رهيبة . تابعنا التقدم بصمت . فجأة سمعنا عواء كلب ، ثم صراخ قطة . لا بد أنهما يتعاركان في مكان ما ، لكن في هذه الساعة؟ يبدو أن القصف المتواصل أربك الساعات البيولوجية للحيوانات أيضا .

الأزقة مظلمة ، والبيوت مظلمة ، ونحن الآن داخل المخيم . قضت الفرقة الهندسية الأيام الماضية في تنظيف المداخل من الألغام ، ومع ذلك طلب منا توخي الحذر . لم نكن نتحدث إلى بعضنا البعض ، كان هذا محظورا . كانت الأزقة ضيقة جدا ، مما تطلب أن نسير وراء بعض . كيف يدخل سكان المخيم بسياراتهم هنا؟ وكيف ستدخل دباباتنا؟ كان سيرنا فرادى وراء بعض منافيا تماما لمبادئ السلوك العسكري ، هكذا يستطيعون اصطيادنا بسهولة ، واحدا واحدا . المهمة محفوفة بالمخاطر . حتى الآن لم تحدث مفاجآت . لم نكتشف ، لم يطلق علينا الرصاص . يبدو أن قواتنا قضت على معظم نقاط المقاومة . هذا

facebook.com/the.Boooks

جيد . أظن أننا نقترب الآن من الهدف . حارة الحواشين لم تعد عيدة . هي الآن على مرمى حجر . بدأت أحس بالاطمئنان . كنا نتحرك بحذر ونتلفت بكل الاتجاهات . وصلنا إلى أطراف لساحة ولم يحدث شيء . وقفنا قليلا وانتظرنا . بدأ قلبي يدق عنف ، لكنني لم أكن خائفا في تلك اللحظة ، أو ربما لم أكن ؛اعيا لخوفي ، هذا كله بفعل الأدرينالين الذي لا بد أنه وصل مستوياته العليا . كنت أحاول التركيز في المهمة والهدف وعدم لتفكير في أي شيء آخر . دخلنا الساحة وبدأنا نتلفت في كل لاتجاهات ، نسجل في ذاكرتنا المداخل والمنافذ كما تقتضي المهمة . فجأة سقط بين رجلي جسم غريب ، قفزت برعب ودخلت أحد الأزقة ثم وقع انفجار . كان ستة من رفاقنا قد علقوا وسط الساحة . صرخات تشق الليل ، الله أكبر ، الله أكبر ، ثم فتحت أبواب الجحيم . بدأنا بإطلاق النار بكثافة ، بينما انبطح رفاقنا الذين حوصروا في الساحة أرضا وأطلقوا النار بدورهم . رأيت شبحا يطل برأسه من أحد الأزقة ، أمطرته بالرصاص ، وأظن أنني أصبته ، لأنني سمعت صرخة . كان رفاقنا في الساحة يتعرضون لإطلاق النار من أكثر من اتجاه ونحن نطلق النار بعشوائية ، لم نكن نرى الهدف ، بينما كان الإرهابيون يروننا . صرخة مدوية من وسط الساحة ، أصيب أحد رفاقنا ، كثفنا إطلاق النار . صرخة أخرى . صدرت الأوامر بالانسحاب ، لكن كيف؟ حاول المحاصرون في الساحة الزحف

facebook.com/the.Boooks

باتجاهنا . صدرت الأوامر لاثنين منا بتكثيف النيران . واثنين بالزحف إلى وسط الساحة ومحاولة جر الجريحين . وصل ثلاثة جنود إلينا زحفا ، كانوا سالمين . انضموا إلينا في إطلاق النار في كل الاتجاهات ، بشكل عشوائي لكن في مستوى مرتفع لتجنب إصابة رفاقنا . وصلت أول إشارة من الساحة . الجريحان فارقا الحياة . حاولوا جرهما . نيران العدو ما زالت تأتي من أكثر من اتجاه ، من ثلاثة اتجاهات تحديدا ، يرسم مسارها شكل مثلث ، مثلث من النيران يبدو جليا في العتمة . أين تعلم هؤلاء هذه التكتيكات الحربية؟ وبأي سلاح يحاربوننا؟أراهن أنهم يستخدمون الأم-١٦ التي زودنا السلطة بها . أي عبث هذا؟ زودناهم بأسلحة ليقتلونا بها .

وصل الجنود الأربعة إلى مدخل الساحة . جنديان حيان يسحبان جنديين ميتين . حملت أحدهما ، وحمل رفيق آخر الجندي القتيل الآخر وبدأنا عملية الانسحاب . قام بقية أعضاء المجموعة بتغطية انسحابنا بوابل من النيران ، ثم لحقونا . انطلقنا جريا إلى نقطة التجمع في بداية المخيم . حين وصلنا كان الفجر قد طلع . سيعود رفيقان آخران جثتين إلى عائلتيهما . سيكون هناك مأتمان آخران في منزلين في مدينة أو كيبوتس . تذكرت عائلتي ، ثم حاولت جاهدا أن أغطي صورتها في وعيي بأي موضوع . ذهبت إلى المطبخ الميداني وأعددت لنفسي القهوة . وقفت في الخارج أرتشفها ، ثم التحقت ببقية

facebook.com/the.Boooks

أفراد المجموعة في مقر القيادة . قدمنا تقريرا عن استطلاعاتنا . سمح لنا بالنوم ٤ ساعات . كنت منهكا فغططت في نوم عميق . حين أيقظونا لاحظت أن القوات في حالة استنفار .

facebook.com/the.Boooks

اقتحام

نعم ، نحن مقدمون على تجريف المخيم . هكذا صدرت الأوامر . نحن مقدمون على جنون غير مسبوق . تمنيت في تلك اللحظة أن تكون لدي الشجاعة الكافية للوقوف في وجه قادتي والصراخ : لن أشارك في جنونكم ! لا أظن أن الشجاعة هي ما كان ينقصني ، بل اليقين . لم أكن أعرف بالضبط أين أقف . لن أهدم بيوتا على رؤوس أصحابها ، وسأعلن العصيان في اللحظة المناسبة لو طلب مني ذلك . لكني غير واثق إن كنت أستطيع التماهي مع أهل المخيم . في النهاية هناك أدلة على أنهم يصدرون الإرهابيين إلى إسرائيل للفتك بمدنيينا . أجهزتنا الأمنية تقول إن منفذي الكثير من العمليات الأخيرة جاؤوا من جنين ، فهل أستطيع تجاهل هذا؟ إذن ما العمل؟ من يأخذ عمري يعطيني بدلا منه شيئا من اليقين؟

بدأت الأوامر تصدر إلينا بالتحرك .

أنا ورفاقي في وحدة المشاة سنتبع الدبابات ، نحتمي بها ونطلق النار بكثافة . ثم تتبعنا الجرافات . قبل ذلك دكت المدفعية المخيم وأسكتت معظم مصادر نيرانه ، وأظننا دمرنا

facebook.com/the.Boooks

الكثير من منازله . تلك البيوت التي تحتضن بعضها تنهار بالجملة بقذيفة واحدة .

انطلقنا . بدأت الدبابات بالتقدم ونحن خلفها ، وخلفنا الجرافات . نطلق النيران الكثيفة بشكل عشوائي ، لكني لا أدري لماذا ، فنيران المخيم سكتت على ما يبدو .

حين وصلنا أول بيوت المخيم كانت بانتظارنا مفاجأة . بعض النشطاء الأجانب كانوا هناك . وصلوا قبلنا . كيف؟ لا أحد يعرف . على الأغلب تسللوا من جهة اليامون بمساعدة سكان محليين . كانوا يخلون الجرحى وسط عويل نساء المخيم .

- يما يما يما . الشهدا جثثهم مرمية وطالعة ريحتها .

- يا حبيبي يما ، يا روحي يما ، يا عمري يما ، كيف أعيش من غيرك . شو أقول لابنك .

تصرخ النساء وتلطم وجوهها . لغتي العربية لم تسعفني في فهم كل ما كن ينحن به .

خلعنا باب أحد المنازل واندفعنا ونحن نطلق النار بجنون . الأوامر تقضي بمسح المنزل بسرعة بحثا عن مسلحين والقضاء عليهم قبل أن تأتي الجرافة وتجهز عليه . لم يكن في المنزل أحد ، وهذا أثار ريبتنا . أين ذهب السكان؟ هممنا بالمغادرة ، وإذا بوابل من النيران ينهال علينا . أذهلتنا المفاجأة وبدأنا بالصراخ وإطلاق النار بجنون في كل اتجاهات المنزل ، إلى أن سكتت مصادر النيران فيه .

facebook.com/the.Boooks

دعينا لمغادرة المنزل وجاءت الجرافة وهدمته دون أن نبحث حتى عن من كان يطلق النار . اندفعنا إلى منزل آخر . بمجرد أن خلعنا الباب وبدأنا بإطلاق النار سمعنا صرخات نسائية حادة . صحت برفاقي :

– توقفوا ، لا تطلقوا النار !

لم يكترث أحد واستمروا في إطلاق الرصاص . لا مكان للعقل هنا . الجنون هو سيد الموقف .

توقف صراخ النساء وخرجنا . عند المدخل اصطدمنا بنشطاء الإغاثة .

– انصرفوا من هنا .

صرخ قائد المجموعة :

– نريد إخلاء السكان نريد البحث عن جرحى وإخلاءهم .

ردت إحدى الفتيات .

– ليس هناك أحد . انصرفوا .

أصرت الفتاة ومعها اثنان من زملائها يحملون حقائب إسعاف أولي . في هذه الأثناء بدأنا نسمع أنينا يأتي من الداخل . اندفعت الفتاة وزملاؤها غير عابئين بنا . بعد دقائق تبعهم آخرون من زملائهم يحملون نقالات . قرر قائد المجموعة تركهم يقومون بعملهم وتابعنا مهامنا . فتشنا عددا من المنازل ، وجدنا جرحى في بعضها وقتلى في البعض الآخر . سمح

facebook.com/the.Boooks

للصليب الأحمر بالدخول لإخلاء الجرحى . كان الوضع هادئا نسبيا ، لم نواجه بإطلاق نار إلا في مناطق قليلة . ألقينا القبض على بعض المسلحين الجرحى .

دخلنا أحد المنازل في وسط المخيم . تقدمت زملائي ، صعدت إلى طابق علوي . كان خاليا من السكان لكن محتوياته لفتت انتباهي : أقنعة ، ملابس ملونة غريبة تنتمي إلى عصور أخرى ، وأشياء أخرى توحي بأن نشاطا ما كان يدور هنا ، نشاطا غير عسكري . غريب ! رجوت زملائي أن يتركوني في الداخل قليلا ، وبدأت أعبث بالمحتويات . وجدت حتى بعض أدوات الماكياج . هل كان هذا مسرحا؟ هنا؟ لم يكن يخطر ببالي أن سكان المخيم يمارسون نشاطات كهذه .

- ماذا تفعل في الداخل؟ أخرج بحق السماء ! الجرافة تنتظر .

- انتظروا قليلا .

كنت قد وجدت بعض الصور . لقطات تمثيلية . نعم ، لا بد أن فرقة مسرحية كانت تمارس نشاطا هنا . وقعت في يدي صورة فيها بعض الأطفال ومعهم سيدة ترتدي كوفية فلسطينية ، لكن ملامحها ليست عربية . ثم ، صورة أخرى ، السيدة نفسها ومعها شاب ملتح . من هؤلاء؟ وضعت الصور في جعبتي وخرجت مسرعا . جاءت الجرافة لتهدم المسرح على كل ما فيه من صور وذكريات للحظات لا يشوبها الإرهاب .

facebook.com/the.Boooks

منذ تلك اللحظة استعدت شيئا من وعيي الإنساني . بدأت أنظر إلى هذا المكان بشكل مختلف . قد يكون مفرخة للإرهابيين ، وقد يكون صحيحا ما تقوله أجهزتنا الأمنية ، لكن فيه أيضا حياة عادية ، تشبه حياتنا . فيه ناس يتناولون وجباتهم ويتبادلون الأحاديث ، يزورون الجيران ويحتسون القهوة عندهم . بل هم يرتادون المسرح . رجوت قائد الوحدة أن لا يهدموا المسرح . أكدت لهم أنني فتشت الشقة بشكل دقيق وليس فيها بشيء يهدد أمننا . لم يعدوني بشيء .

منذ تلك اللحظة بدأت أدخل البيوت بوعي مختلف وأرى محتوياتها بعيون أخرى . فجأة بدأت ألاحظ الأطباق والمواعين ، فناجين القهوة ، قطع الأثاث ، دفاتر مدرسة ، أصص أزهار ، صورا عائلية . فجأة ، وكأن هذه التفاصيل كانت غائبة عن المكان وبدأت تبزغ من العدم . أبدا ، هي كانت موجودة طوال الوقت ، لكنها بدأ تنبت في وعيي الآن ، وبعد أن اكتشفت ذاك المسرح البدائي في المكان .

دخلنا منزلا في أحد أطراف المخيم . كان بابه مفتوحا وقد ارتمى عند مدخله شابان مسلحان . كانا ميتين . دخلت بحذر . لا بد أن معركة دارت هنا ، أو ربما تعرض المنزل لإطلاق نار . الصمت يلف أرجاءه . ليس هناك أحد في الداخل على ما يبدو . ربما كان الشابان القتيلان هما السكان الوحيدين ، وأصيبا حين حاولا مغادرته . أردت المغادرة والإيعاز لسائق

facebook.com/the.Boooks

الجرافة بإنهاء المهمة ، ثم فجأة تنبهت إلى رائحة قوية تنبعث من إحدى الغرف ، رائحة جسد متحلل على ما يبدو . فتحت باب الغرفة وألقيت نظرة . كانت هناك سيدة مسنة ، ملقاة على الأرض ، ميتة . .

فتحت باب غرفة أخرى ثم أطلقت صرخة . لماذا؟ هذه ليست المرة الأولى التي أرى فيها قتلى في بيوت المخيم . لكن هذه كانت فتاة صغيرة ، شابة ، ملقاة على الأرض . اقتربت منها . تعثرت بأوان مليئة بالماء ، اقتربت أكثر لأرى ملامح وجهها . كانت تبدو أصغر مني بسنوات قليلة . ربما كانت طالبة مدرسة ، أو قد تكون على أعتاب حياتها الجامعية . ما يهم الآن؟ هي لم تعد شيئا . أحلامها أطفئت ، وكل لحظات حياتها ، الحلوة والمرة ، أصبحت الآن في غياهب العدم . ألقيت نظرة على مكونات الغرفة . كانت تعمها الفوضى . بعض الملابس مبعثرة على الأرض ، وسط أوان مليئة بالماء وأخرى فارغة . الغرفة شبه مظلمة ، لأن خزانة الملابس كانت تحجب النافذة الوحيدة فيها . لا بد أن هذه الفتاة كانت تظن أن الخزانة ستحميها من الرصاص . كم كانت ساذجة . دخلت المطبخ . وجدت كوب شاي مليئا حتى منتصفه ، وطبقا صغيرا فيه مربى المشمش على ما يبدو . أحسست بالجوع . داهمتني رغبة بتذوق مربى المشمش . غمست إصبعي في الطبق ولحسته . كان لذيذا . لا بد أن تلك المرأة المسجاة في الغرفة الأخرى

facebook.com/the.Boooks

كانت طاهية ماهرة . غمست إصبعي مرة أخرى ، أحسست بشعور غريب ، أنا الآن شاركت سكان هذا المنزل طعامهم . لا ، ليس بالضبط ، فأنا جئت بدون دعوة ، رغما عنهم ، وتذوقت طعامهم دون دعوة أيضا . عدت إلى الغرفة ، تأملت وجه الفتاة مرة أخرى . بلا ملامح . يلفه سكون الموت . . ثم ، لاحظت أنها تقبض بيدها على شيء . كانت تمسك بكراسة مدرسية ، عليها بقع دماء . كانت كأنها تحتضنها . هل كانت تعد واجباتها المدرسية؟ حاولت انتزاعها برفق . تمكنت من ذلك بصعوبة . تصفحت الكراسة . ما هذا؟ ليس هذا دفتر واجبات مدرسية . نص عربي ، حاولت القراءة . أستطيع قراءة الخط العربي المطبوع ، لا خط اليد ، مع ذلك واصلت المحاولة . بدأت أتبين بعض الكلمات . غير معقول !! يا إلهي ! هذه الفتاة كانت تكتب يومياتها ! في أثناء القصف . أنا الآن في مواجهة آنا فرانك أخرى . آنا فرانك الفلسطينية . داهمتني رغبة قوية بالبكاء ، لم أحاول منعها . ارتفع نشيجي على ما يبدو ووصل إلى خارج المنزل . اندفع أحد رفاقي إلى الداخل .

- ماذا يحدث هنا؟ هل أنت بخير؟

توقفت عن النشيج . مسحت دموعي ولم أجب .

- ما هذا؟ لمن هذه الكراسة؟

- لا شيء ، لا تهتم للأمر .

أجبت ، وتشبثت بالكراسة . خفت عليها . لا أريد أن

facebook.com/the.Boooks

أفقدها . يجب أن اقرأها . أريد أن أقرأ كل كلمة كتبتها هذه الفتاة .

- هل تريد الاحتفاظ بها؟

- نعم .

- لماذا؟

_أرجوك توقف عن طرح الأسئلة !

هز رأسه وقال : كما تشاء .

حشرت الكراسة في جعبتي .

- ساعدني في إخراج الفتاة من هنا ، هناك سيدة عجوز أيضا في الغرفة الأخرى .

أحسست كأن هؤلاء يختلفون عن الآخرين الذين مررت بجثثهم . لهم ملامح لم أتبينها وقصص لم أقرأها بعد ، لكنني سأفعل . سأترجم ما كتبته هذه الفتاة ، أريد أن أعرف من هي . بماذا كانت تحلم؟ كيف كانت تعيش؟ أريد أن أعرف من قتلت رصاصاتنا . أشك أن هذه الصبية تسللت يوما إلى مدننا بحزام ناسف ، ولكنها منذ اللحظة تسللت إلى كياني .

facebook.com/the.Boooks

عودة إلى الأسئلة

انتهت معركة المخيم لكنا بقينا فيه . أكثر من جرثومة كانت تنهش فكري وجهازي العصبي . كنت أيضا في حالة إثارة بسبب ما أحمله في جعبتي ، الصور وكراسة الفتاة . كنت تواقا لمعرفة حكاية هذا المكان ، واضح أنهم اختزلوها لنا . هذه بؤرة إرهاب ، قالوا لنا . أراهن أن رفاقي في الوحدة لم يكونوا يتخيلون أن في المخيم أطفالا ونساء . لا يمكن أن يكونوا فكروا أن في هذه البيوت الفقيرة تعيش عائلات تستيقظ في الصباح وتتناول وجبتها حول مائدة واحدة ، أطفال يذهبون إلى المدارس وآباء إلى عملهم ، وأمهات ينتظرن العائلة على الغداء بوجبة ساخنة لذيذة . طعم مربى المشمش الذي تذوقته في ذلك المنزل يلسعني الآن ، يذكرني أن عائلة كانت تسكن هناك ، تطبخ وجبات لذيذة وتتحلق حول المائدة لتأكلها بمتعة . نعم ، لذة مربى المشمش الذي تذوقته مؤشر على أن ربة البيت كانت طاهية ماهرة . رفاقي في الوحدة لا يمكن أن يكونوا فكروا بهذا . أراهن أن أحدا منهم لا يفترض أن رجال المخيم يمارسون الحب مع نسائهم . هنا يعيش إرهابيون فقط ، كتل من الغضب

facebook.com/the.Boooks

والحقد والكراهية ، وإن لم نقتلهم قتلونا . آه يا راسي . منذ عدت والصداع يفتك بي . لم تجد معه المسكنات بأنواعها .

مكثنا في المخيم أسبوعين بعد استسلام آخر مسلح ، وكانت فترة خدمتي قد انتهت فطلبت تسريحي ، وهكذا كان عدت إلى بيت عائلتي في يافا ، طرقت بابه . فتحت لي والدتي ، شهقت من الفرحة حين رأتني . احتضنتني وغمرتني بالقبلات ، وصرخت : إلياهو ، إلياهو ، عاد ديفيد . رجع سالما .

هرع والدي واحتضنني بدوره . أما أنا فكنت في عالم آخر . كنت أحس بأذرعهم تعصرني ، ولكني كنت أشعر كأن هذا يجري مع شخص غيري ، كأنني أراقب المشهد من بعيد .

– ديفيد ، ماذا جرى لك يا ولدي؟

سأل والدي

– أنا بخير ، لا تقلقوا .

جلست مع والدي في غرفة الجلوس ، ثم انضمت إلينا والدتي ومعها كوب من عصير الليمون المثلج .

– كاد القلق يقتلنا . كنا نتابع المعركة على التلفزيون .

لم أعلق .

– كنتم أبطالا .

قال والدي

لم أنبس .

– هم يقولون إن الجيش ارتكب مجزرة ، والعالم المنافق

facebook.com/the.Boooks

يستمع إليهم ويردد كالببغاوات .

قالت والدتي .

لم أكن معنيا بالرد .

- طبعا ماذا تتوقعين؟ على اليهود أن لا يكترثوا لثرثرة العالم . من اكترث لموتنا حين أبادونا؟

وقفت بعصبية وقررت التوجه إلى غرفتي .

- ما لك يا ولدي؟ ماذا جرى لك؟ هل أنت بخير؟

- أنا بخير .

قلت ، ثم أضفت : لكني متعب ، أريد أن أنام . .

عندما أفقت في المساء تلقيت مكالمة هاتفية من شوشانا . كان صوتها فرحا على الناحية الأخرى . هي فرحة بعودتي سالما . لم تشارك بالعمليات في الضفة ، لحسن حظها . كنت باردا معها . قالت إنها تريد رؤيتي . وافقت بغير حماسة . تواعدنا على اللقاء في مطعم عربي .

حين وصلت المطعم كانت شوشانا بانتظاري . نهضت وركضت باتجاهي .

- ديفيد ، ديفيد ، كم أنا سعيدة برؤيتك !

ضمتني بحرارة وقبلتني ، أما أنا فلم أبد حماسة كبيرة .

لا بد أنها أحست بذلك .

- كانت تجربة قاسية ، أليس كذلك؟

- أقسى مما تتصورين .

facebook.com/the.Boooks

- يا بطلي الصغير ، كم أنا فخورة بك .

وأمسكت بيدي وضغطتها . سحبت يدي من **يدها** بعصبية .

- أرجوك ، لا تتفوهي بهذه التفاهات .

احمر وجهها .

-مالك؟

جلسنا إلى الطاولة ، وما لبث النادل أن حضر .

- أحضر لنا زجاجة شمبانيا وكأسين .

قالت له .

- لا أريد شمبانيا .

مرة أخرى أحسست بصدمتها .

- مالك يا حبيبي؟ أريد أن نحتفل بعودتك سالما .

قلت بلا مبالاة : ليس هناك ما يدعو للاحتفال .

ثم توجهت بالحديث إلى النادل : هل لديكم مربى المشمش؟

ابتسم النادل العربي الأسمر ، وقال : نعم ، بالتأكيد .

- أحضر لي مربى المشمش إذن .

كانت شوشانا تصوب نحوي نظرات حائرة .

- ماذا يدور في داخلك يا حبيبي؟ ماذا جرى لك؟

وأمسكت بيدي مرة أخرى ، لم أسحب يدي هذه المرة ، لكني لم أتجاوب معها .

facebook.com/the.Boooks

أحضر النادل صحنا فيه مربى المشمش .

– ألن نطلب عشاء؟

– أطلبي عشاء .

– وأنت؟ ألن تتعشى؟

– سأتعشى أنا أيضا .

تصفحت شوشانا قائمة الطعام وطلبت لنفسها شيئا . وجهت لي بضعة أسئلة فأجبتها دون وعي . بدأت أغمس إصبعي في مربى المشمش وألحسه بتلذذ .

– ماذا تفعل؟

– لا شيء .

– هل هذه طقوس جديدة؟

ضقت ذرعا بأسئلتها . لم أكن أريد أن أقدم أي تفسير لسلوكي .

طلبت بيرة ، وكذلك شوشانا . بدأت بارتشافها بصمت ، أما شوشانا فلم تكف عن الثرثرة . لم أكن أتابعها ، بل اكتفيت بتعليقات مقتضبة على ما تقول ، إجابات قصيرة عن أسئلتها التي لا تنتهي .

رافقتني شوشانا إلى المنزل ودخلنا غرفتي مباشرة . كانت في حالة شبق مجنون أحسست به في المطعم . لم تتوقف عن لمسي ، وفي بعض الأحيان تسللت بيدها إلى المنطقة الحساسة من جسدي . حين ضمنا الفراش واعتلتني أغمضت عيني

facebook.com/the.Boooks

وتركت لها دفة القيادة . كانت تهمس في أذني بعبارات الحب والشهوة وأنا أبتعد بوجداني عنها تدريجيا ، وحين أدركت نشوتها وسمعت صرخات لذتها كانت هي قد تلاشت ، اختفت تماما من وجداني . لا أذكر شيئا مما دار بيننا من أحاديث تلك الليلة . لم أكن أتحدث كثيرا وأرخيت لها العنان .

في الصباح غادرت ، وكنت قد قررت أن لا أعيد الاتصال بها أو لقاءها .

facebook.com/the.Boooks

ليلى

التقيت ليلى . هي زميلة دراستي السابقة ، أمها يهودية وأبوها عربي . عيناها سوداوان ، عربيتان ، وشعرها كذلك ، ولون بشرتها يحمل بصمات والدتها البولندية الأصل . تتحدث العربية والعبرية بالمستوى نفسه . سأطلب منها أن تترجم لي ما في الكراسة التي وجدتها إلى جانب الفتاة القتيلة . منذ وقعت بيدي تصفحتها عشرات المرات ، حاولت أن أتهجى الكلمات ، أن أفهم ما كتبت . خطها مرتبك ، آمل أن تتمكن ليلى من قراءته .

كلما أخرجت الكراسة من حقيبتي ورأيت بقع الدم على غلافها أحسست ببشاعة ما اقترفناه ، وطاردتني صورة جسدها المسجى باستسلام على أرض الغرفة . من أنت؟ وكيف اقتحمت حياتي بهذه القوة؟ أردت أن أعيد قراءة آنا فرانك ، لكني عدلت عن ذلك . لقد أخذت حقها وأكثر من ذلك . والآن بين يدي يوميات أخرى لآنا فرانك أخرى صنعنا أسطورتها بأيدينا . أنا الآن مكرس لها .

التقينا في «مقهى يافا» ، هو ليس مقهى تماما بل دكان لبيع الكتب ، العربية في الغالب ، ولكنه يقدم الشاي بالنعنع

facebook.com/the.Boooks

والقهوة وبعض المأكولات الخفيفة .

وصلت قبل ليلى ، تصفحت بعض الكتب ثم جلست إلى مائدة صغيرة وطلبت شايا بالنعنع . بدأت أرتشفه ، أحسست وكأن مذاقه الآن مختلف . ثم فجأة ناديت النادل وسألته : هل عندكم مربى المشمش؟

- نعم

- هل تحضر القليل منه؟

- حاضر . هل أحضر معه كرواسان أيضا؟

- لا ، مربى فقط .

نظر إلي باستغراب ، ثم غادر وعاد بطبق صغير فيه مربى المشمش ، وضعه أمامي على الطاولة . غمست إصبعي فيه ولحسته بتلذذ .

- ماذا تفعل يا هذا؟

نظرت باتجاه مصدر الصوت ، كانت ليلى تقف فوقي مبتسمة .

- أهلا ليلى . تفضلي . اجلسي .

وقفت وصافحتها ، قبلت وجنتي ، ثم جلست .

- أنا سعيدة بعودتك سالما .

قلت باقتضاب وأنا أطرق إلى الأرض : شكرا .

نظرت إلي ثم سألت : مالك؟

- لا شيء .

facebook.com/the.Boooks

- لا تبدو سعيدا .

- لست سعيدا .

- لماذا؟ ما الذي حدث؟

حضر النادل وأخذ طلب ليلى ، عاد بعد قليل ومعه الشاي بالنعنع . تابعت ليلى أسئلتها وملاحظاتها .

- لا بد أنها كانت تجربة قاسية

قلت بصوت ضعيف : كانت كذلك فعلا .

- لكن ما الذي جرى لك؟ أمس قابلت شابين ممن شاركوا في عملية الدرع الواقي ، كانا يملآن المكان ضجيجا وفرحا . كانا فخورين بما أنجزا . ما بالك تبدو محبطا؟

غمست إصبعي مرة أخرى في صحن المربى ولحسته .

- وما هذا السلوك الغريب أيضا؟ شد ما تغيرت يا ديفيد . هل عدت بعادات العرب؟

لم أعد أحتمل ، صرخت بها : نعم ، عدت بعادات العرب! ألست عربية أنت أيضا؟ كيف هو والدك؟ هل كان يتابع أخبار المعارك؟ هل كان سعيدا بها؟

احمر وجه ليلى ، أما أنا فقد هدأت قليلا بعد أن قذفتها بتلك الكلمات .

- أنا آسف يا ليلى .

قالت بصوت ضعيف : لا داعي للأسف يا ديفيد ، معك حق . أنا أميل للتنكر لجذوري أحيانا . معك كل الحق .

facebook.com/the.Boooks

بدأت أندم على ما بدر مني : أنا آسف لم أكن أقصد أن أضعك في مأزق . يبدو أنني أرغب بجر الجميع إلى مأزقي .

نظرت إلي بفضول : ولكن ما هو مأزقك؟ ما الذي جرى بالضبط؟ ألا تريد الكلام؟

- سنتكلم لاحقا . ليس هذا ما التقينا من أجله . أريدك في موضوع آخر .

حدقت بي باهتمام : أنا أصغي إليك .

أخرجت الكراسة بحرص من حقيبتي ومددت لها يدي بها . نظرت إلى غلافها ، لا بد أنها لاحظت بقع الدم .

شهقت : يا إلهي ! ما هذا؟

ركزت عيني في وجهها وقلت : افتحيها .

فتحت الكراسة ، وتوقفت عند الصفحة الأولى طويلا .

- من أين أتيت بها؟

- من هناك .

- أين خدمت خلال المعركة؟

- في مخيم جنين .

بدا عليها التأثر

- لكن أين وجدت هذه الكراسة؟

- في أحد المنازل التي اقتحمناها . هي لفتاة دون العشرين من عمرها . أريدك أن تترجميها ، وسأدفع لك ما تشائين .

- حاضر ، سأترجمها . متى تريدها؟

facebook.com/the.Boooks

- في أسرع وقت ممكن .

وضعت الكراسة في حقيبتها ثم بدأت بارتشاف شايها .

- ليس هذا كل ما هنالك .

نظرت إلي بفضول أقوى . أخرجت الصور من حقيبتي وناولتها لها .

- من هؤلاء؟

- هذا ما أريد أن أعرفه .

- ولكن أين عثرت على هذه الصور؟

- في شقة في المخيم ، مخيم جنين ، يبدو أنها كانت تستخدم للتدرب على عروض مسرحية .

- هذه المرأة ليست عربية . ربما كانت ناشطة أوروبية . الشاب كذلك .

نظرت إليها برجاء : هل تستطيعين مساعدتي ، ليلى .

- ربما ، لكن لماذا أنت مهتم بهم؟

- سأخبرك لاحقا .

تأملت في الصور مرة أخرى . وقالت : لي أصدقاء يساريون ، إن كان أصحابك إسرائيليين ، فهناك احتمال كبير أن يكونوا معروفين في أوساط الناشطين اليساريين .

منحني هذا شيئا من الأمل . أريد أن أعرف ما أستطيع معرفته . لا أدري إن كان في عمري متسع لمعرفة كل ما حرصت على معرفته . لقد كنت مغيبا . كنا مغيبين .

facebook.com/the.Boooks

آرنا

اتصلت بي ليلى بعد أيام ، وكان في صوتها حماسة ومرح ، خمنت أنها تحمل أخبارا وكان هذا صحيحا .

- لم يكن الأمر صعبا . المرأة يهودية يسارية اسمها آرنا ، كانت تنشط مع أطفال مخيم جنين قبل المعارك . والشاب ابنها اسمه جوليانو . هو مخرج مسرحي أو مخرج أفلام على ما أظن .

صرخت من الفرحة : ليلى أنت رائعة .

أحسست أني أريد معانقتها .

- هل أطمع إلى أن تعرفيني عليهما؟ أريد أن أصل إلى آرنا وجوليانو .

- لن يكون هذا صعبا .

أحسست بالتفاؤل ، للمرة الأولى منذ عودتي من جنين أحس بشعور إيجابي . حين رأتني والدتي بهذه الحالة لم تخف فرحتها .

- كنت واثقة أنك ستتجاوز المحنة يا حبيبي .

ابتسمت لها ، من القلب هذه المرة .

- هل نجلس قليلا؟ هل أصنع لك القهوة؟

facebook.com/the.Boooks

أردت أن أجاملها ، جلست معها في غرفة الجلوس بعد أن أعدت لي فنجانا من الإسبريسو . وآخر لها .

- هل تريد حليبا مع القهوة؟

سألت وهي تسكب الحليب في فنجانها .

- شكرا ، أفضلها بدون حليب .

رفعت الفنجان إلى فمها . تأملت تلك الحركة الهادئة المطمئنة ، ثم رفعت عيني إلى وجه أمي ، كانت في ملامحه وداعة . كيف ذلك؟ كيف نكون بهذا السلام مع أنفسنا؟

- ما أخبار تلك الفتاة؟ شوشانا . لم أعد أراها معك .

لم أكن أريد الحديث في موضوع شوشانا .

- هي بخير . سافرت إلى خارج البلاد للدراسة .

لم يكن هذا صحيحا ، ولكني أردت أن أقفل موضوعها إلى غير رجعة .

- وأنت ، ماذا ستفعل؟ هل ستلتحق بالجامعة؟

لم أدر بم أجيبها . لم أكن قد خططت شيئا . كان كل شيء أمامي يبدو غامضا ويلفه الشك . لم أرد أن أدخل في نقاش مع والدتي حول الموضوع . فقلت لها : سأقرر في الأيام القادمة .

فجأة سألت والدتي : هل لدينا مربى المشمش؟

نظرت إلي باستغراب : لا أظن . لا نشتريه ، لم تطلبه من قبل . هناك مربى الفراولة في الثلاجة ، هل أحضر لك؟

- لا شكرا .

facebook.com/the.Boooks

- هل أشتري مربى المشمش من السوبرماركت؟ لم أكن أعرف أنك تحبه .

- لا داعي ، سأشتري بنفسي .

في مساء ذلك اليوم عدت إلى مقهى يافا . أحس بالإلفة هناك . طلبت شايا بالنعنع وقليلا من مربى المشمش . حين أحضره النادل قلت له : قل لي :

- نعم .

- هل تبيعون هذا المربى؟ هل أستطيع أن أشتري علبة منه؟

قال مبتسما : يبدو أنه أعجبك .

- نعم . أنا أعرف أنكم لستم متجرا ، لكن سيسعدني لو حصلت على علبة من المربى ، بأي حجم وبأي ثمن ، لا يهم .

- سأسال معلمي .

بعد قليل عاد مبتسما وهو يحمل مرطبانا زجاجيا وقال بفخر : هذا صناعة منزلية . أطيب بكثير من شغل المصانع .

كنت واثقا من هذا .

حين عدت إلى البيت لاحظت أمي أني أحمل ذلك المرطبان ، هزت رأسها وقالت وابتسامة على شفتيها :

- أرى أنك تدبرت أمرك .

ولكن حين رأتني ألحس المربى بإصبعي لم تبد مسرورة أبدا .

facebook.com/the.Boooks

جوليانو

رتبت لي ليلى لقاء مع جوليانو في الناصرة . سافرت إلى هناك والفضول يقتلني . كان موعدنا في مقهى في وسط المدينة . وصلت قبل الموعد بربع ساعة ، وجلست أتأمل الزبائن . انتابني شعور غريب . أنا هنا في وسط عربي صرف . أستبعد أن يكون بين ضيوف المقهى يهودي واحد . أنا أفضل المدن المختلطة : يافا ، حيفا ، عكا . لا أحب اللون الواحد واللغة الواحدة والذهنية الواحدة . في يافا أينما ذهبت أتعثر بالعرب . في تل أبيب هذا نادر . أما هنا في الناصرة فوجود اليهود شبه معدوم .

طلبت شايا بالنعنع ، سألني النادل : هل أحضر لك الكعك أو البسكويت مع الشاي؟

- لا شكرا ، سأكتفي بالشاي .

- الكعك والجاتوه هنا طازج ، صناعة محلية ، خاص بالمحل .

ابتسمت وقلت بأدب : أشكرك ، ربما في وقت لاحق .

بدأت باحتساء الشاي بتلذذ وأنا أرقب المدخل . بعد قليل

facebook.com/the.Boooks

لمحت شخصا يشبه إلى حد بعيد صاحب الصورة التي أحتفظ بها في جيبي يدخل المقهى . لوحت له ووقفت . اتجه إلي .

- مرحبا ، أنا اسمي ديفيد ، سعيد بلقائك .

مد جوليانو يده مصافحا وقال : سعيد بمعرفتك ديفيد . أنا اسمي جوليانو .

جلسنا .

- من أين تعرفني؟

سأل وهو يركز نظراته في وجهي .

أخرجت الصورة من جيبي وبسطتها أمامه : من هذه الصورة .

بدت عليه المفاجأة .

- من أين حصلت عليها؟

- من مخيم جنين .

نظرت إلى وجهه لأرى تأثير ما قلت على ملامحه . كانت محايدة . لم يبد عليه أنه صدم .

- أنت خدمت هناك إذن .

قلت بارتباك : نعم .

حدجني مرة أخرى : هل تخدم في الشين بيت؟

أحسست بالألم وقلت كأنني أرد تهمة : لا أبدا . أنا هنا لغرض لا علاقة له بالدولة وأجهزتها .

نظر إلي بفضول : وما هو هذا الغرض؟

facebook.com/the.Boooks

- أنت على علاقة بأهل المخيم كما هو واضح .

أجابني بعصبية : إلى ماذا تريد أن تصل؟ أكرر السؤال : هل تخدم في جهاز أمني؟

بدأ الإحباط يتسلل إلي . كيف أكسب ثقته؟ كيف أبسط حقيقة مأزقي أمامه؟

- أنا مأزوم أستاذ جوليانو وأريدك أن تساعدني .

نظر إلي نظرات فيها الكثير من الفضول ، وربما شيء من التعاطف .

- أفصح .

بدأت أقص عليه تطور مأزقي من أول سؤال طرحته على والدي عن ملكية منزلنا إلى أن عثرت على تلك الكراسة المضرجة بالدماء التي أرقناها . كان يصغي إلي باهتمام واضح . حين انتهيت هز رأسه وقال : صحوة ضمير إذن .

لم أعلق .

- ماذا تريد أن تعمل الآن؟

- أريد مساعدتك .

- في ماذا؟

- أريد أن أقيم علاقة مع أهل المخيم .

تفحصني مرة أخرى .

- أعطني مهلة للتفكير .

أحسست بفرح غير مسبوق . وددت أن أعانقه ، لكني لم

facebook.com/the.Boooks

أفعل . شعرت بعرفان شديد . قلت بفرح :

- خذ ما تشاء من الوقت .

- سأتصل بك .

أعطيته رقم هاتفي وقلت : وأنا سأنتظر مكالمتك على أحر من الجمر .

facebook.com/the.Boooks

حواجز

لم يستغرق الأمر ليلى أكثر من أسبوع . قلت لها أنا لا أريد ترجمة أدبية أو شيئا من هذا القبيل ، أريد أن أعرف مضمون ما كتبت تلك الفتاة التي اتضح أن اسمها أريج . كان مكتوبا على غلاف الكراسة التي خمنت أنها كانت تستخدمها في المدرسة . اسمها أريج الشايب ، وكانت تعد لامتحانات الثانوية العامة وتحلم بأشياء كثيرة . كيف جعلونا نرى الفلسطينيين شيئا مجردا لا ملامح له على الإطلاق ، لا اهتمامات صغيرة أو كبيرة ، لا عواطف سوى الكراهية ، كراهية اليهودي . هم ماكنات تفريخ ليس إلا ، ينجبون أطفالا قذرين ، وحين يكبرون إما يصبحون عمالا وخدما لنا ، أو إرهابيين يريدون قتلنا . هذه الصورة مريحة لوعينا الكسول ولنمط حياتنا الأكثر كسلا . لن أنسى ذلك الموقف الذي حصل في مصنع «فيتا» للمعلبات في رمات غان . كنت أعمل هناك في العطلة الصيفة ، وكان معي شاب من الضفة ، أظنه من طولكرم . كان قد أنهى الثانوية العامة ولعله أراد توفير مبلغ ما لبداية حياته الجامعية . أذكر أن «المناهيل» ، وكان اسمه أريه ، سأل مروان حين أراد ترك المصنع

facebook.com/the.Boooks

في نهاية العطلة عن السبب . كان يظنه سيبقى تحت إمرته حتى يحال على التقاعد . قال مروان إنه سيلتحق بالجامعة ، وكانت تلك الصدمة الأولى التي أصابت أريه . نظر إلى مروان غير مصدق . كيف ذلك؟ هذا العربي يريد أن يلتحق بالجامعة؟ أليس من المفروض أن يبقى عاملا هنا؟ وجاءت الصدمة الأكبر حين سأله عن الجامعة التي سيلتحق بها . قال مروان بكل بساطة إن معه قبولا مبدئيا من جامعة السوربون في باريس ، حيث سيدرس الأدب المقارن . بقي أريه صامتا طوال ذلك اليوم ، وكان يسترق نظرات غريبة إلى مروان بين الفترة والأخرى .

أنا أعيش في يافا ، وهي مدينة مختلطة : المخبز الذي نشتري منه خبزنا اسمه «مخبز أبو العافية» وهو عربي ، تأسس قبل دولة إسرائيل بفترة طويلة . جزارنا المفضل عربي ، وحين أريد أن آكل الأيسكريم أفضل «فيكتوري» وهو محل عربي أيضا . لكن كم عربيا أعرف؟ لا أحد ! باستثناء ليلى ، لكن لا علاقة لمعرفتي بها بكون أبيها عربيا . هي ليست عربية أصلا . حين نتحدث لا أحس بأي فرق بينها وبين أي فتاة يهودية أعرفها : مشاعرها ، ولاؤها ، كل شيء فيها يهودي . لا شيء عربيا فيها سوى عينيها السوداوين وشعرها الفاحم ، ولكنها تحس بقلبها لا بعينيها ، ويبدو أن قلبها تبع هوى والدتها اليهودية أكثر مما تأثر بأبيها العربي . بعكس جوليانو . هو ابن

facebook.com/the.Boooks

ناشط شيوعي عربي ، ووالدته ، آرنا يهودية ، وأحس من كلماته أن هواه عربي . لا أريد التبسيط . ربما هو إلى حد بعيد «world citizen» كما يقولون . أثار اهتمامي ، بل وإعجابي أيضا ، من أول لقاء . حضوره قوي جدا ، له «كاريزما» . متى سيتصل بي؟ أرجو أن يوافق على مساعدتي .

بدأت بتصفح يوميات أريج . شدتني إلى حد بعيد . تلك الفتاة وضعتني في جو حياتها الصغيرة . هل يعقل أن يكون ذلك المخيم البائس بمنازله المتهالكة مسرحا لتلك الحياة؟ هؤلاء البشر فنانون في خلق فضاءات رحبة من لا شيء . من غرفتها الضيقة ، حيث وجدتها غارقة بدمها رسمت صورة لعالم ثري بالمشاعر والأحداث والأحلام . عالم ، على ضيق حدوده ، يتسع لكل شيء : ألعاب وعواطف ، أعياد ميلاد وهدايا ، أجواء مدرسية وصداقات دافئة ، حب عائلي لم أخبر مثله وسط عائلتي العظيمة ، والكثير الكثير من الفقر . كيف استطاعت أن تجعل هذا البؤس يبتسم؟ كيف سحرت في فضاءاته الكئيبة شموسا؟ هل كنت أنا أو غيري من الإسرائيليين سنتحمل حياة كهذه ونبقى نبتسم ونأكل لقمتنا بشهية؟ أريج ، يا أريج ، دمك في رقبتي أنا شخصيا . لم تكن رصاصتي هي التي قتلتك ولكن تواطؤي . لم أكن شجاعا بما يكفي ، رغما أني كنت أرى الصورة بوضوح أكثر من غيري . كان يجب أن أرفض الخدمة ، ولم أفعل . كان يمكن أن أرفع صوتي ، ولم أقو سوى

facebook.com/the.Boooks

على الحشرجة . كنت جبانا وضعيفا . كنت متواطئا . أنا أكرهني أكره كل شيء حولي ، عائلتي ، أصدقائي ، بلدي القائم على ركام حياة الآخرين . ولا عزاء . ما حصل قد حصل ، ومهما فعلت بعد الآن لن يكون أكثر من محاولة مني لترميم داخلي المتهتك . يعني سيكون عملا أنانيا يخدم سلامي مع نفسي . كنت أستطيع أن أعمل شيئا مختلفا لو كانت لدي ذرة من الشجاعة والقدرة على الحسم . فات الأوان الآن . . فات الأوان . . .

facebook.com/the.Boooks

يوميات الحصار

أريج الشايب

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

- ١ -

لم أدخل السجن في حياتي ، رغم كوني فلسطينية ، وابنة مـخـيـم ، إذن أنا أنتـمي إلى القلة المحظوظة من الفلسطينيين ، ولكني لا أحس الآن أني مـحظوظة أبدا : لو كنت قـضـيـت بضعة شهور في سجن إسرائيلي لكنت تعلمت مهارات كثيرة ، منها كيفية قضاء الوقت وأنا محصورة في بيت مغلق ليس فيه الكثيـر من متطلبـات قضـاء الوقت . أخي هاني ، حين قضى بضعة أشهر في سجن جنيد صنع لي أقراطا جميلة وعقدا لم يفارق عنقي من يومها ، وكل ما كان يتوفر لديه في السجن هو مخلفات الأكل والعلب البلاستيكية والمعدنية الفارغة . صنع العقد من نوى الزيتون ، والقرط من علب صفيح وأسلاك ، طبعا لم يكن ذلك ليـخطر على بال أحـد ممن رأوا القـرط في أذني والعقد يتدلى على صدري ، وربما ظنوا أنني اشتريتها من محل إكسسوارات . قال لي هاني إنه قضى ثلاثة أسابيع كـاملة في صنعها . أنا لم أدخل السجن ، ولم أكتسب مهارة قتل الوقت قبل أن يقتلني . مضت علي بضعة أيام وأنا في هذه الحالة ، لم تكن حالة واحـدة في الواقع ، فـقـد بدأت بالرعب ثم انتـهت

facebook.com/the.Boooks

بحالة برود الأعصاب التي أعيشها الآن ، وما بينهما عشت حالات كثيرة . المهم ، جربت أكثر من وسيلة لقتل الوقت ، استوحيت معظمها من وسائل الترفيه التي كانت والدتي تبتكرها حين كنا صغارا لتعوض غياب الألعاب والدمى التي لم تتوفر لنا بسبب الدخل المحدود لعائلتي ، فوالدي يعمل سائق سيارة أجرة ، وليس لوالدتي أي دخل . والدتي كانت فنانة في . . . . . Bummmmm tatatatata انفجار آخر ، ربما في مدخل المخيم ، وصوت زخات رصاص لا تنقطع ، لكن الصوت بعيد نسبيا .

- أريج!

- نعم ستي .

الحمد لله ، ها هي قد استفاقت ، هي نائمة منذ بعد ظهر الأمس ، وقد بدأت أقلق عليها .

- جيبي لي كباية مي يا حبيبتي .

- حاضر .

دخلت المطبخ ، أخرجت كوبا من الخزانة ، وفتحت الصنبور ، ثم فجأة Bummmmmmmn .

facebook.com/the.Boooks

-٢-

فتحت عيني وأصوات إطلاق النار تتوالى في الجوار . لم أصب ، لكني وقعت على الأرض وأغمي علي لفترة وجيزة بفعل الانفجار الذي لا بد أنه وقع في مكان قريب ، لأنه هز أرجاء البيت حتى خلت أن سقف المطبخ سيسقط فوق رأسي . كوب الماء تحول إلى شظايا تناثرت في المكان . أخرجت كوبا ثانيا وملأته بالماء ، وتوجهت إلى غرفة جدتي . ناديتها قبل أن أصل لأطمئنها أنني بخير ، لكنها لم تجب . هل عادت للنوم؟ ثم خطر ببالي خاطر آخر : هل طالت فترة إغمائي أكثر مما أتصور؟ أم هل . . . .؟ ركضت باتجاه غرفتها مفزوعة ، فتحت الباب وبدأت بالصوات . جدتي وقعت من سريرها ، وملابسها مضرجة بالدم .

- ستي ستي !

ما من مجيب .

بدأت أهزها وأناديها ، لكن لم يصدر عنها أي صوت . نظرت إلى عينيها ، كانتا مفتوحتين . هي على قيد الحياة إذن ، الحمد لله !

facebook.com/the.Boooks

ركضت إلى خزانتها وأحضرت منشفة بللتها بالماء وحاولت مسح الدماء عن عنقها . لكن أين كان الجرح؟ يجب أن أربطه حتى يتوقف النزيف . بدأت بخلع ملابسها بحثا عن الجرح ، الدم على صدرها وبطنها ، لكني لم أجد مكان النزيف الذي يبدو أنه توقف .

- ستي ستي!

أصرخ بها وأبكي

- ستي ردي علي !!

ما من مجيب ، لكن عينيها مفتوحتان ، إذن فهي حية ، رغم كل شيء .

- ستي ستي!

هززتها ، ولكن لا حياة .

لا فائدة! عيناها شاخصتان ، لكنها في مكان آخر . هل عيون الموتى تبقى مفتوحة؟ ماذا أعمل الآن يا ربي؟

- ستي ستي!

وعاودت النحيب .

ثم فجأة بدأت أصرخ بها : قومي ! تموتيش ! كيف تتركيني لحالي؟ أبوي وأمي وصوكي علي وانتي قلتي مش رح ينقص علي إشي ! كيف مش رح ينقص علي؟ رحتي وتركتيني لوحدي . ستيييييي . . . . . .

وتابعت العويل .

facebook.com/the.Boooks

نظرت إليها مرة أخرى وفكرت في ما آلت إليه . أنا الآن وحيدة في بيت ليس فيه سوى جدتي الميتة ، وأصوات الرصاص والانفجارات في الخارج تصم الآذان . فكرت بحالي ثم بدأت أصرخ وألطم وجهي حتى أغمي علي . لم تطل إغماءتي ، وحين أفقت أحسست بهدوء غريب . نظرت إلى جدتي ، جسدها عار ، فقد نزعت عنها ثيابها . لم أحاول أن أعيد إلباسها الثياب ، بل قمت بأكثر من محاولة لإعادتها إلى سريرها . لم أفلح ، فهي أثقل وزنا مني بكثير . بحثت عن حشية ، وعدت بها . وضعت جسد جدتي المدمى العاري عليها ، وغطيتها بحرام . غطيت وجهها أيضا ، فأنا الآن واثقة أنها ميتة ، ثم بدأت أعد لمواجهة الواقع الجديد ، وحيدة . . . .

facebook.com/the.Boooks

-٣-

أنا خائفة ، خائفة جدا . خائفة أن تنفجر قذيفة أخرى في الجـوار وتقـضي شظاياها علي هذه المرة . لا أريد أن أمـوت ، أخاف من الموت . مدرسة التربية الإسلامية ، ست جميلة ، قـالت لنا إن الموت ليس مـخـيـفـا ، لأن من يموت يذهب إلى الجنة ، إن كـان في الحيـاة مؤمنا مخلصـا . أنا مؤمنة ، وأصوم رمضـان منذ سن العـاشـرة ، أحيـانا أصلي ، لكني لا أريد أن أذهب إلى الجنة الآن . لا أدري مـاذا يفعلون في الجنة ، لكني أريد أن أبقى هنا مع صـديقـاتي وعـائلتي . يا الله ، أين هي عائلتي؟ أين وفاء وهاني ومحمد؟ اين أمي وأبي؟ ومتي يأتون ليعيدوني إلى بيتنا؟ لكن ، حتى لو عادوا من عمان ، كيف يدخلون المخـيم؟ وكـيف يصلون إلى منزل جـدتي؟ هذا مستحيل ، فالقصف لا يتوقف والاشتباكات مستمرة في جميع أنحـاء المخيم . صوت الرصاص لا يسكت لحظة . وأين هاني؟ هو مع الشبـاب ، لم يذهب مع أهلي إلى عمـان ، فهل هو في أمـان؟ أنا خـائفـة أن أموت دون أن أرى عـائلتي . وخـائفـة من جدتي . كلما نظرت إليها أحس أني أنظر إلى شبح . هي الآن

facebook.com/the.Boooks

شبح ، لأنها ميتة . كنت دائما أخاف من الموتى ، ولم أكن أجرؤ على المرور بجانب المقبرة في الليل . والآن سأقضي الليلة في بيت واحد مع شبح . بدأت بالنحيب ، ثم ذهبت وأحكمت إغلاق باب غرفة جدتي . أحسست بشيء من الاطمئنان ، لكنه لم يدم طويلا . تذكرت أن الأشباح يمكن أن تدخل عبر النوافذ والأبواب المغلقة . بدأت بقراءة سورة ياسين ، لا أدري لماذا سورة ياسين تحديدا ، ولكني كنت أسمعهم يقرأونها في المقابر . عادت إلي الطمأنينة . البيت في ظلام دامس ، الكهرباء مقطوعة منذ بداية الحصار ، وأنا في سريري منكمشة من الرعب . أحاول أن أغلق عيني ، ثم يهيأ لي أني سمعت أصواتا ، فأفتحهما برعب وأحاول تركيز نظراتي في الظلام ، علني أرى شيئا ، فلا أرى .

أحس بجوع شديد ، أكلت اليوم آخر ما تبقى من الخبز . لن أموت جوعا ، فمطبخ جدتي عامر . في نهاية كل موسم خضار وفواكه ، حين تصل الأسعار إلى الحضيض تشتري جدتي كل شيء : مشمش ، عنب ، سفرجل وتصنع منها مربيات ، وتصنع الكبيس من الخيار والفقوس ، والمقدوس من الباذنجان والفلفل ، تحشي الأول بالجوز والثوم والثاني بالبندورة والبقدونس .

رفوف مطبخها عامرة بالمرطبانات المليئة بالمربيات والمخللات ، لن أموت جوعا إذن .

facebook.com/the.Boooks

نهضت من السرير بحرص وحاولت تلمس طريقي في الظلام إلى المطبخ . تحسست أحد الرفوف حيث خمنت وجود مربى المشمش ، اصطدمت يدي بأحد المرطبانات ، قبضت عليه . لم أكلف نفسي عناء البحث عن صحن وملعقة في الظلام ، لا جدوى . أخذت المرطبان معي إلى الغرفة وبدأت أنتشل أنصاف ثمار المشمش بيدي وألتهمها . مربى جدتي ألذ من مربى الدكاكين بكثير . غريب! مربى الدكاكين يشبه المهلبية ، سطحه أملس ،ليس فيه ثمرة واحدة أو جزء من ثمرة . مربى جدتي فيه ثمار كاملة أو أنصاف ثمار .

آه يا ربي ، ما هذا؟ يما ، يما ! تعثرت بجسم صلب في طريق عودتي إلى الغرفة ووقعت على الأرض ، وكسر المرطبان . حاولت أن أنهض دون أن أتكىء بيدي على الأرض حتى لا تجرحني شظايا الزجاج . عدت إلى سريري ، انهرت عليه وبقيت أبكي حتى غبت في النوم . حين أفقت كانت أشعة الشمس تعبر زجاج النافذة . نزلت من السرير بحرص حتى لا أدوس على شظايا الزجاج . ذهبت إلى المطبخ ، أحضرت المكنسة وكنست الشظايا ، ثم ألقيت بها في الزبالة . مسحت مكان المربى اللزج بفوطة مبلولة بالماء ، وعدت إلى غرفتي . ماذا أعمل الآن؟ ليست لدي أية فكرة ! كيف أقضي الأيام والليالي القادمة إلى أن يفرجها الله؟ لا أدري . عدت إلى سريري ، أغمضت عيني وحاولت العودة إلى النوم . لم يكن ذلك

facebook.com/the.Booooks

سهلا . نهضت من سريري وتوجهت إلى المطبخ ، وقررت أن أطبخ شيئا للغداء . وجدت في الفريزر نصف فرخة . هل أعد صينية؟ لا ، سأدخر نصف الفرخة لأيام قادمة . من يدري إلى متى يستمر الحصار؟ ومع ذلك استطيع أن أعد صينية ، بدون دجاج ، «كذابة» يعني ، كما تدعوها جدتي . ابتسمت . لماذا «كذابة»؟ وما علاقة الصدق باللحوم؟ ثم عبست . جدتي ماتت ، رحلت مع كل نوادرها وطرائفها وأطباقها الشهية ، وحكاياتها التي كانت تسلينا بها في ليالي الشتاء . بدأت أبكي . بقيت على تلك الحال فترة ، ثم قررت أن أعمل شيئا مفيدا . بحثت عن شيء أطبخه ، وجدت «ربطة» معكرونة . سأعد صينية معكرونة إذن ، هذه سهلة ، ولا يتطلب إعدادها وقتا ، وأنا «شاطرة» ، بحكم كوني بنتا . والدتي لم تقصر معي ، وبدأت بإعدادي لبيت الزوجية منذ جاءتني الدورة أول مرة . لماذا هذا التوقيت؟ هل كان مصادفة؟ لا أظن . جريت إليها مرعوبة ذلك الصباح بعد أن لاحظت قطرات دم في الحمام ، وقلت لها باكية إنني «أصبت بنزيف داخلي» . ضحكت أمي من التعبير ، وأغاظني ذلك . كنت في حالة هلع وهي تضحك! ثم أخبرتني أن هذا ليس نزيفا داخليا ، بل هو شيء طبيعي ، يحصل مع كل الفتيات في تلك السن ، وأنه سيتكرر كل أربعة أسابيع . لماذا كل أربعة أسابيع؟ تساءلت بسذاجة ، ولم أحصل على إجابة . هي فقط أخبرتني أن علي أن أذهب إلى الصيدلية

facebook.com/the.Boooks

وأشتري فوطا صحية خاصة أضعها بين ساقي طوال أيام «النزف» ، التي قد تقتصر على أيام ثلاثة وقد تمتد لخمسة أيام أو أكثر . المهم أنني أحسست يومها بشيء غريب ، كأنني أحسست للمرة الأولى بأنني بنت ، أنثى ، تختلف عن حمودة وهاني ، لأن في حياتها سرا لن يعرفه منذ الآن سواها ، سرا حميما لا تملكه سوى الإناث . وفي اليوم الثاني تعلمت كيف أعد صينية المعكرونة . كانت والدتي تعدها للغداء ودعتني لمساعدتها . هل كان التوقيت مصادفة؟ لا أظن . ثم تتالت الوصفات التي تعلمتها ، حتى أصبحت طاهية «معدلة» ، جاهزة للزواج وإدارة بيت . هذه هي الصلة إذن .

كنت أفكر بكل هذا وأنا أعد الصينية . لم يستغرق إعدادها وقتا طويلا . كنت جائعة فأكلت ، ثم شعرت بالنعاس فاستلقيت على سريري ، وما هي إلا لحظات حتى غفوت .

facebook.com/the.Boooks

- ٤ -

كان أول ما عملته حين أفقت أن توجهت إلى غرفة جدتي، فتحت الباب وقلبي يدق، وخوف غريب ينتابني. هل ما تزال في مكانها أم أن شبحا آخر حملها وغادر بها؟ فتحت الباب ببطء، ونظرت باتجاه الحشية، حيث تركتها. كانت هناك، مغطاة بالبطانية، كما تركتها. كشفت وجهها، عيناها ما زالتا مفتوحتين، ومنظرهما مخيف. ستي، إلى ماذا تنظرين؟ هل ترينني؟ ولماذا ذهبت وتركتني لوحدي؟ ألم تعدي أمي وأبي بأن تعتني بي؟ وانفجرت بالبكاء مرة أخرى. لا بد أن دموعي ستنفد عما قريب، لكثرة ما أبكي. لا أريد أن أرى عينيك مفتوحتين مرة أخرى. أغمضتهما برفق وغطيت وجهها. توجهت إلى المطبخ. كنست ما تبقى من شظايا مرطبان المربى الذي كسر ليلة أمس ومسحت مكانه. أعددت كوبا من الشاي بالميرمية، وجلست في المطبخ أشربه. اشتقت لعائلتي، أبي وأمي ووفاء ومحمد وهاني. أحسست برغبة في التحدث إليهم. أريد أن أتحدث معهم الآن. بعد أن انتهيت من الشاي قررت أن أعقد اجتماعا عائليا. أحضرت إبريق

facebook.com/the.Boooks

الشاي ، وضعته على الطاولة ، وقلت له : أنت أبي . ثم وضعت بجانبه السكرية وقلت لها : أنت أمي . كوب الشاي هو هاني وكوب شاي آخر هـو وفاء . أما الصغير حمودة فهو الملعقة . أبي! سيارتك أخذها عمي الأمين ، زوج عمتي شذا ، إلى طولكرم . أحسن . من يدري ماذا كان سيحصل لها لو بقيت هنا؟ ربما فجروها أو أخذوها . جاء عمي الأمين وطلب مني المفاتيح . أعطيتها له بدون تردد . هل أنت راض عني؟ أبي تعال خذني (وبدأت دموعي تسيل بصمت) . تعال خذني من هنا . إلى متى سأبقى وحدي مع جدتي؟ هي ميتة يا أبي ، شبح ! قضيت الليلة الماضية مع شبح . لا أريد أن أبقى معها فترة أطول ، لا أريد .! أنا أحبها ، أحب جدتي ، لكنها ليست جدتي بل شبحها . تعال خذني إلى بيتنا . أمي ، ما هو اعتراضك؟ لم أعتن بجدتي؟ لم أحمها؟ تركتها تموت؟ هي الكبيرة وأنا الصغيرة ، أنا بحاجة إلى الحماية ، ولا أحد يحميني . سأموت أنا ايضا (الآن بدأت أنتحب وأنوح) . يا أمي سأموت مثل جدتي ، ستدخل رصاصة أو شظية عبر النافذة وستخترق رأسي أو صدري . حمود ، أنا سعيدة أنك لست هنا يا حبيبي . انبسطت في عمان؟ ذهبت إلى مدينة الملاهي؟ أكلت بوظة؟ تخانقت مع وفاء كالعادة؟ فوفو حبيبتي ، مشتاق لك . هل سأراك مرة أخرى؟ هل سأراكم مرة أخرى؟

أمسكت هاني ، كوب الشاي ، بيدي . هاني حبيبي أين

facebook.com/the.Boooks

أنت الآن يا عمري؟ لماذا لم تذهب معهم إلى عمان؟ لو ذهبت لكنت الآن في أمان . لا بد أنك تكمن في مكان ما في المخيم مع رفاقك ، تحمل رشاشك وتنتظر . أنت قناص بارع ، الكل يتحدث عن مهارتك . لا بد أنك تحاول أن تصيدهم الآن . ما إن يحاولوا التسلل حتى تصطادهم ، واحدا واحدا . أنا فخورة بك يا حبيبي . (قبلت الكوب . خطر ببالي شيء فأبعدته عن فمي وعبست) . لكني لم أرتح لما فعلت في ذلك اليوم ، حين أعطيت الكلاشن لفوفو وسمحت لها بإطلاق الرصاص منه . كان الرصاص يلعلع وهي تضحك بفرح طفولي . لماذا يا هاني؟ لماذا لم تحضر لها باربي في عيد ميلادها؟ كلاشن لفتاة لم تبلغ العاشرة؟ متى ستعرف الباربي والدبدوب إذن؟ حين تصبح في مثل سني؟ أنا لم أعرفها حتى الآن ، راحت علي ، وستروح على فوفو أيضا . لن تعرف سوى الكلاشن والمولوتوف . حتى حين تلعب «بيت بيوت» مع صاحباتها ستتذكر البيوت الكثيرة التي تهدم في المخيم . تأتي الجيبات العسكرية وخلفها جرافات ، تجرفها في رمشة عين . أحيانا لا يعطون العائلة مهلة لإنقاذ ممتلكاتها . تتحول كلها إلى ركام ، بلا ملامح ، وتدفن وسط الأنقاض حياة بأكملها ، سهرات وحكايات وشجارات عائلية . هاني ! أنت ايضا كدت تتسبب بهدم بيت العائلة البائس . حين اعتقلت كان أبي وأمي لا ينامان ، وكلما سمعا صوت جيب عسكري أو رطانة عبرية في الجوار هبا من الفراش

facebook.com/the.Boooks

مذعورين ، وصرخا : أجو ! هل كنت تعرف هذا يا هاني؟ هل حدثك أحد به؟ إنطق ! أجب ! تكلم ! ما لكم صمتم جميعا؟ لماذا لا تتحدثون؟ لماذا؟كل شيء حولي صامت! جدتي صامتة ، وأنتم صامتون ! الرصاص والانفجارات هي الصوت الوحيد الذي أسمعه . أبي ، قل شيئا ، أرجوك ! أمي ، أمي ! حمود ، مالك خرست؟ أين ذهب صوتك وصراخك الدائم؟ تكلموا !

ثم بدأت أهزهم واحدا واحدا أمسكت أبي ، إبريق الشاي ، وبدأت أهزه وأصرخ به : كفى صمتا ! تكلم ! قل أي شيء ! بهدلني ، عنفني ، إصرخ بي .

انسكب الشاي على بنطلوني ، لم أكترث . أمسكت أمي ، السكرية ، وبدأت أصرخ بها وأخضها بعنف . ثم فجأة سقطت على أرض المطبخ وتحطمت . أحسست بالرعب . قتلت أمي ! قتلت أمي ! بدأت أصرخ بشكل هستيري . قتلت أمي . يما يا حبيبتي . يما يا حبيبتي ! يما يا حبيبتيييييييييي !

facebook.com/the.Boooks

ـ ٥ ـ

لم أعد أخاف من جدتي ، أعني شبح جدتي . أصبح وجودها ممددة على حشية في غرفة نومها إلى جانب السرير ومغطاة ببطانية ، عاديا ، لا يثير بي لا الخوف ولا أي انفعالات أخرى . مخيف ، أليس كذلك؟ قبل فترة قصيرة كانت فكرة أن تموت جدتي ستهز كياني ، والآن ها هي ترقد بلا حراك ولا يثير بي هذا مشاعر غير عادية . ببساطة لأن علي أن أتعامل مع مهام شاقة : كيف أقضي وقتي حتى لا أجن؟ لا أدري كيف يتحمل السجناء في الزنازين الانفرادية مرور الوقت بهذا البطء دون أن يلوح في الأفق أمل يخفف انتظاره من ضجرهم . والأغرب من كل ذلك أنني بدأت أتعود أصوات الانفجارات ، لم تعد تثير بي الرعب كما في البداية . فكرت ، واهتديت إلى أفكار ، لدي متسع من الوقت للتفكير ، وأظن أنني اهتديت إلى بعض الحيل : سأقتل هذا الصمت الذي يلفني بأن أحاور العالم خارج جدران هذا البيت . . سأحاور كل الأشخاص في حياتي : أمي ، أبي ، وفاء ، حمودة ، هاني ، أبناء وبنات عمتي شذى ، المدرسين والمدرسات . وعارف . من هو عارف؟

facebook.com/the.Boooks

ستعرفون . سأحاور أيضا العالم المجهول ، نعم ، سأكتب يوميات ، بل أنا بدأت كتابتها بالفعل قبل فترة كما ترون . سأسجل تفاصيل اللحظات التي أقضيها هنا وحيدة ، إن خرجت من هنا حية ربما نشرتها ، وإن . . . . .لا ، لا أريد ، سأخرج حية ، وسأرى عائلتي وأصدقائي ، وعارف . من عارف؟ حبيب القلب . كانت بداية علاقتنا غريبة . هو وحيد والدته وقرة عينها ، تخاف عليه من هب النسيم ، ولذلك منعته حتى من ركوب الدراجة ، فالمطبات بالمرصاد «لهداة بالها» . وهكذا شب واشتد عوده دون أن يفكر حتى بالمحاولة . وحين حصل على رخصة قيادة السيارة ، لزوم العمل الذي حصل عليه بالزور ، كاد القلق يجهز عليها . ولكن الله موجود وسيحميه ، وهي على كل حال تضرعت إليه ، رجته وهي تبكي : «إمشي الزيق الزيق يما . مش تروح بين السيارات؟» . ولأنه بار بأمه ، مشى الزيق الزيق ، وفي أول «طلعة» له صدم اثنين من المارة على الرصيف ، لكن الله سلم ، ودعاء الوالدة لم يخذله هذه المرة أيضا . وحين اندلعت الانتفاضة كان عارف ملتزما بنصيحة الوالدة «إمشي الزيق الزيق يما» . لكن ضابط الاستخبارات الإسرائيلية المسؤول عن منطقة جنين لم يستوعب ، فكل أقرانه ينخرطون بالانتفاضة ، ظنه يخفي ما هو أعظم . و«الشباب» في المخيم لم يصدقوا ، وجزموا بأنه عميل . استدعاه الأول ، وأشبعه جنوده ضربا . وتبعه «الشباب»

facebook.com/the.Boooks

وأشبعوه بصقا ثم ركلا ثم لكما . ثم . . .اكتشفوا انه «خالص كازو» كما يقولون ، فقدموا لأمه التي لطمت خديها حتى أدمتهما ، كوفية فلسطينية ، تبرئ ساحة ولدها الحبيب ، الذي لم يعد يمشي «الزيق الزيق» ، بل أصبح حبيس غرفته .

عارف جارنا ، بيتهم لصق بيتنا ، وقد نشأنا معا . هو أكبر مني بثلاث سنوات . كان مثل أخي الكبير وكنت مثل أخته الصغرى ، في البداية . كان مسالما بشكل غير مألوف ، ولا أذكر أنني رأيته متورطا في عراك مع أقرانه ، بعكس بقية الفتية ممن هم في مثل سنه . مرة واحدة تعارك مع ثلاثة من أبناء الحي أصغر منه سنا ، قبل سنين ، وكان ذلك بسببي . كنت عائدة إلى البيت من درس خصوصي في بيت ست هداية مدرسة الرياضيات ، كانت الدنيا شتاء ، في الخامسة بعد الظهر يكون الظلام قد حل . بيت ست هداية في أطراف المخيم ، وبيتنا في الأطراف لكن من الناحية الأخرى . كنت عائدة إلى البيت لوحدي ، حوالي السابعة مساء . الدنيا برد ، وأنا متلفعة بشال صوفي ولا أفكر سوى بسرعة الوصول إلى البيت . فجأة ظهر ثلاثة فتيان ، بسني تقريبا ، انشقت عنهم الأرض .

- وين يا حلو؟

أخرستني المفاجأة .

- تعالي نوصلك . الدنيا ليل ، وكمان في دوريات في المخيم .

facebook.com/the.Boooks

- شكرا مش خايفة .

- مش خايفة؟ يسلم لي الشجاع ، ابو عيون جريئة .

بدأت أحس بالضيق . فجأة أمسك أحدهم يدي .

- تعالي ، بنلف اللفة ، بعرف طريق أقصر .

- أترك إيدي .

فجأة ظهر عارف .

- أتركوها يا شباب

قال أحدهم ساخرا : أهلا ! ليش إنت تشو دخلك؟

رد آخر : يمكن حبيبتو .

- أتركوها رجاء ، هاي زي خواتكم .

- سيبك من هالحكي ، هي حبيبتك؟ إحكي الصحيح .

- إذا حبيبتك بنتركها .

لم يرد ، وأنا ازددت خوفا من أن ينشب عراك بينهم .
عارف لن يأخذ منهم «لا حق ولا باطل» ، هو لا يجيد العراك .
بدأوا يدفعونه : حبيبتك ولا مش حبيبتك؟ قول! خلصنا !
والآن بدأت أنا أناشدهم بتركه : أتركوه .

- ها ، هيها جاوبت ، خايفة عليه ، يعني حبيبتو .

- لا خليها تقول صراحة . إنتي حبيبتو؟ إذا قلتي «آه» بنتركم الاثنين ، لأجل الحب .

وأطلق ثلاثتهم قهقهة عابثة .

بدأ اثنان منهم بالتحسيس على جسمي ، عندها حاول

facebook.com/the.Boooks

عارف الإمساك بأيديهما . تلقى لكمة على وجهه ، ثم أخرى ، ثم بطحوه وأخذوا بركله ، وأنا أبكي وأصرخ بهم : أتركوه ، أتركوه !

ثم فجأة ظهر رجل وامرأة قادمين من أحد الأزقة .

- ولا إنتي واياه ، شو مالكم عليه؟ يلعن أبوكم اتركوه !

فر الفتية الثلاثة ، وأنا أمسكت بيد عارف . ساعدته على النهوض .

- شو مالهم عليك يا خالتي؟

سألته المرأة .

وقف عارف وبدأ ينفض الغبار عن ملابسه .

- ولا إشي ، سوء تفاهم .

نظر إليه الرجل ، ثم نظر إلي بريبة .

- شو سوء تفاهم يعني؟

أجبت : كانوا يضايقوني ، وهو أجا يحكي معهم عشان يتركوني .

ضربت المرأة كفا بكف : الله يجازي أهلهم اللي مش مربيينهم . وين بيتكم يا خالتي؟

- بأول المخيم .

قال عارف : أنا جارهم ، بوصلها للبيت .

نظر إليه الرجل مبتسما : شهم والله ، بس إوعى توكل كمان قتلة .

facebook.com/the.Boooks

لم يجب عارف ، وتابعنا سيرنا دون أن ينبس بكلمة . ربما كان يحس بالخجل بسبب إذلاله أمامي . حاولت أن أشجعه .

- شكرا ، لولاك كان ما بعرف شو عملوا فيي .

لم يجب .

- وين كنت رايح؟ في هالأيام ما بشوفكش بتطلع من البيت بالمرة .

- كنت في العيادة ، كان عندي مراجعة عند الدكتور .

- خير؟ شو في؟

- ولا إشي ، بوخذ حبوب ولازم أجدد الروشيتة لما يخلصوا .

- حبوب عشان إيش؟

أطرق ولم يجب .

ثم خمنت أنه يتعاطى أشياء ضد الاكتئاب ، أو كما يقول الفتية في المخيم «حبوب مجانين» ، لكنه لم يكن مجنونا ، بل هو بالتأكيد أعقل من أقرانه . لكنه كان مختلفا ، وهذه جريمة لا تغتفر في بلادنا .

حين اقتربنا من البيت وقفت ، واجهته ، أخذت يده بيدي ، ضغطتها قليلا ، قلت : شكرا . وأطلقت ساقي للريح .

تلك الليلة لم أنم بسهولة . وحين غفوت ، في وقت متأخر ، كانت صورته آخر ما رأيت في مخيلتي . رأيته بشكل مغاير تماما لما كان عليه في الواقع . كان أكثر وسامة ، ولم يكن «سقيطة» كما يحلو لنساء الحي أن يصفنه ، ولا جبانا كما كان

facebook.com/the.Boooks

فتية الحي يتقولون . كان شهما ، شجاعا ، يهب لنجدة فتاة في مأزق ، في مواجهة شباب ثلاثة ، ولا يهمه إن كان أضعف من كل واحد منهم على حدة . الشجاعة ليست قوة عضلات ولا قدرة على الركل واللكم . هم كانوا أنذالا رغم قوتهم الظاهرة ، وهو كان أشجع من ثلاثتهم مجتمعين ، لأنه تحداهم ، ووقف إلى جانبي .

رأيته في الحلم يمسك بيدي ويجري بي بعيدا عنهم ، كان هاربا إذن ، هو لا يحبذ المواجهة إن كانت علاقات القوى في غير صالحه ، لكنه ينجو وينجيني معه . على الأقل هذا ما حصل في الحلم . جرينا معا . لحق بنا الفتية الثلاثة . تسارعت خطواتنا أكثر . ثم فجأة ، ارتفعنا عن الأرض . كيف؟ حلقنا معا فوق المخيم . والفتية ينظرون إلينا بذهول ، وعجز . لن تمسونا بشر أيها الأوغاد .

حين فتحت عيني في الصباح كنت أحس بخفة طائر ، وكان قلبي يرقص جذلا . هل وقعت في الحب؟ وكيف لي أن أعرف؟ لم يحدث أن جربت ذلك من قبل . كل ما أعرفه أن يومي أصبح له مذاق مختلف ، واكتسبت أشيائي الصغيرة مضمونا وهدفا . أصبحت أقف أمام المرآة أكثر قبل الخروج . أصفف شعري بعناية أكبر . اشتريت ملقط حواجب . كذلك مددت يدي ، للمرة الأولى ، إلى ما وفرته من نقود العيديات على مدى سنين ، وقررت شراء ملابس داخلية جديدة ، غير

facebook.com/the.Boooks

تلك البائسة التي تشتريها لي أمي . تعزز شعوري أكثر بأني أنثى ، وأصبح في حياتي سر أنثوي آخر ، جميل ، ليس كذلك الذي يداهمني كل أربعة أسابيع .

facebook.com/the.Boooks

- ٦ -

يجب أن أبدأ التقنين في الأكل فلا أدري إلى متى يستمر هذا الوضع . ومع أن مطبخ جدتي عـامـر بالمربيـات والمخللات والكثير من الأطعمة الأخرى إلا أني فكرت ، وأنا أتناول قطعة من الجبنة النابلسية أن لا نهاية في الأفق لهذا الحصار ، فإن لم أمت من رصاصة طائشة أو قذيفة تهدم البيت على رأسي لا أريد أن أموت من الجوع . بالمناسبة ، لماذا يسمونها «جبنة نابلسية»؟ نحن اشتريناها من «عرابة» ولا دخل لنابلس بالموضوع . ربما لأنها تستخدم في صناعة الكنافة النابلسية .

أحب الجبنة البيضاء مسلوقة ومقلية بزيت الزيتون ، لكن ألذ أشكالها هو «الجبنة المقمرة» . في ليالي الشتاء ، نتكوم حول الموقد (الكانون) ، نلتصق به لننال شيئا من الدفء القليل الذي تشعه الجمرات في وسطه . ليالي الشتاء قارسة البرد لكنها جميلة . بردها قاتل ، لأن مصدر الدفء الوحيد يخبو في التاسعة أو العاشرة على أكثر تقدير ، حين تنطفئ الجمرات في الموقد ، ونهجع إلى فراشنا في الغرف الباردة . ستي كانت تمارس بعض الحيل البسيطة لتدفئتنا حين كنا ننام في منزلها

facebook.com/the.Boooks

أحيانا ، تسخن الماء وتضعه في قربة ونضع القربة تحت اللحاف الصوفي ، فتهدينا دفئا إضافيا ، ولو مؤقتا . أسوأ الأوقات هي لحظات ما بعد الاستيقاظ من النوم : نكون قد سحرنا القليل من التدفئة تحت الأغطية خلال الليل ، ثم فجأة تدعونا الحياة والمدرسة ومهام النهار إلى مغادرة الفراش إلى الغرف الباردة وأزقة المخيم الموحلة .

أما مصدر اللذة في ليالي الشتاء فهو اجتماع العائلة بكامل أفرادها في الصالة ، حول كانون النار ، وإبريق الشاي بالميرمية يتوسط الموقد حتى يبقى ساخنا ، وقطع الجبنة البيضاء المغلفة بورق القصدير تدفن تحت الجمر ، لتخرج بعد قليل مقمرة لذيذة ، نلتهمها مع الخبز المحمص فوق الموقد والشاي الساخن . أبي يحدثنا عن ركابه الكثيرين ، يروي لنا حكاياتهم ، يسلينا بها . وأمي تتداول أخبار الجارات ، آخر ما جد في حياتهن من خطبة وزواج وخلافات عائلية . هذه الأجواء تدوم طوال الشتاء وتخفف من المعاناة التي يسببها البرد والوحل .

أبحث بين المواد الغذائية المخزونة في مطبخ ستي ، فأجد ضمن ما أجد العدس المجروش . سأحاول أن أطبخ شوربة عدس هذا اليوم ، مع أنها من الوجبات الشتائية والطقس حار هذا اليوم ، لكن لا يهم ، أشتهيها ، على كل حال ليست هناك خيارات كثيرة . سأخبز أيضا ، الحمد لله أن هناك ما يكفي من الدقيق . مخزن ستي عامر ولن أجوع . لكن ، مرة أخرى

facebook.com/the.Boooks

أصطدم بالسؤال : إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ ولا إجابة . علي التقنين في الاستهلاك إذن . أنا آكل وجبة واحدة ولا أظنني أستطيع التقنين أكثر من ذلك .

«سكان محترمين . إبقوا في بيوت من أجل سلامة . إبقوا في بيوت . إرهابيين يطلقوا النار عن أسطح بيوت . إبقوا في الداخل من أجل سلامة . إبقوا في الداخل .»

من أين يأتي هذا النداء؟ غريب! هل اقترب الجيش إلى هذه الدرجة؟ هل دخلوا المخيم؟ المقاومة خفت ، لكنها لم تتوقف نهائيا . الصوت ليس قريبا لكنه مسموع ، ربما كانوا منتشرين في مدخل المخيم ، ويستخدمون مكبرات صوت قوية .

«لوقتو بيجي مقتو» كما تعودت ستي أن تقول ، أما الآن فسأعد شوربة العدس .

facebook.com/the.Boooks

- ٧ -

أفـقت اليوم على صوت انفجـار مـزلزل . فـتحت عيني مرعوبة . لم أجرؤ على النهوض من السرير ، خفت أن يحدث انفـجـار آخـر في مكان قـريب وتدخل الشظايا من النوافذ . خطرت ببالي فكرة . إذا حجبت زجاج النوافذ بقطع أثاث ، هل يمنع هذا الشظايا من الدخـول؟ ممكن . هذا يعني أن شعاع الشـمس أيضـا لن يدخل الغرف وسـأعـيش في الظلام ليلا نهارا . هذا ليس مهما الآن . أفضل من دخول الشظايا . نهضت من السرير وبدأت أحاول زحزحة خزانة الملابس . أففففت! ما أثقلهـا ! لم تتـزحـزح من مكانهـا . يجب أن أفـرغـهـا من محتوياتها . فتحت بابها من أجل إفراغها . ما إن وقعت عيناي على محـتوياتها حـتى بدأت أبكي . رأيت مـلابس جـدتي . أحـسست الآن أن جدتي ليست «شبحـا» كـمـا توهمت في الأيام الماضـية . هي جدتي الطيـبة التي كـانت تعمل أطيب «كلاج» في الدنيا . في كل عيد فطر كانت تأتي إلى منزلنا في الوقـفة الكبـيرة ، وتبـدأ «بطبع» الكلاج منذ الصـبـاح ، ونحن نتراكض حـولها بفرح . عائلتي لا تستطيع شـراء الحلويات من

facebook.com/the.Boooks

السوق . أمي لا تعمل ، ودخل والدي من سيارة الأجرة لا يكفي إلا للأساسيات ، مع شيء من التدبير الذي عرفت به الوالدة . لا مكان للترف في حياتنا ، لكن جدتي تهدينا «الترف» الذي تسحره بطريقتها . قبل أذان المغرب بساعات كنا نأخذ سدر الكلاج إلى الفرن ، ونعود به ساخنا . ترش عليه جدتي القطر ، وتقطعه ، ونحن ننتظر بلهفة ونمصمص شفاهنا . أول شيء نعمله بعد آذان المغرب هو التهام حصتنا الأولية من الكلاج ، رغم اعتراض والدتنا التي تريد أن نؤجل ذلك إلى ما بعد الوجبة ، لكن لا أحد يستمع إليها . نتحلق حول السدر ، أنا ووفاء وحمودة وهاني ، وتضع جدتي حصتنا في طبق واحد ، ثم يبدأ الهجوم . نلتهم الوجبة في لحظات ، وحين ننتهي يبدأ حمودة بالبكاء ، ويصرخ محتجا بين دموعه أن البنات «وهرات وبوكلو بسرعة» وأنه لم يطل شيئا ، ويطالب بحصة إضافية . ترفع الجدة سبابتها في وجهه محتجة ، ثم ترضخ في النهاية ، وتعوض حمودة بقطعة إضافية وهي تتمتم : شو بدو يظل للعيد؟

ولكن الكلاج ليس الترف الوحيد الذي تسحره ستي فاطمة في حياتنا . في كل موسم تصنع المخللات والمربيات لها ولنا . مطبخ بيتنا عامر بأصنافها وهي تعوض فقر موائد الغداء والعشاء . تصوروا وجبة غداء مكونة من «غلاية بندورة بالفلفل» . . هي لذيذة طبعا ، خاصة إذا أعدت بزيت الزيتون ،

facebook.com/the.Boooks

ولكن كيف تصبح الوجبة ثرية حين يكون إلى جانبها مقدوس الباذنجان بالثوم والجوز والزيت وكبيس الفلفل المحشي بالبندورة والبقدونس، والزيتون. وكيف ستكون مائدة الإفطار فقيرة لو اقتصرت على الزيت والزعتر، ولم تعمرها صحون مربى العنب والمشمش والسفرجل! كل هذه «الإكسسوارات» الغذائية تصنعها جدتي بتكاليف بسيطة، فهي تشتري الخضار والفواكه من حسبة جنين في نهاية الموسم بأبخس الأسعار.

بدأت بتفريغ رفوف الخزانة. هذا ثوبها المطرز، هذا غطاء رأسها الأبيض، وهذا سروالها الطويل الذي كانت ترتديه تحت الثوب. تحسست الثياب، شممتها، هذه رائحة جدتي. رائحتها حية، زكية. هي ليست شبحا هي حية. خطر ببالي أن أدخل إلى غرفتها وأكشف عنها الغطاء. ماذا لو وجدتها جالسة وبيدها المسبحة كعادتها؟ ماذا لو كان موتها كابوسا استيقظت منه لتوي؟ قطبت فجأة. هذا ليس كابوسا، بل هو واقع يجثم بثقله على صدري. لن أدخل إلى غرفتها. لا أريد رؤيتها على تلك الحالة. ثم، خطرت ببالي فكرة. ذهبت إلى المطبخ وبحث عن إناء كبير ملأته بالماء لحسن الحظ لم ينقطع عنا الماء. سخنته وبحثت عن منشفة. حملت الإناء وتوجهت إلى غرفة جدتي. فتحت الباب ودخلت. يا ربي، ما هذه الرائحة؟ بهذه السرعة؟ لكني لم أكترث، رفعت الغطاء عن وجهها، بحثت عن مكان الجرح، ووجدته. كان هناك ثقب

facebook.com/the.Boooks

في أسفل العنق ، هي رصاصة إذن لا شظايا . . بدأت بمسح الدم المتخثر بالمنشفة المبلولة بالماء الساخن . حين انتهيت ألبستها الثوب المطرز الجميل فوق شلحة ، ثم ألبستها السروال الطويل . هي ليست شبحا الآن . هي جدتي الطيبة . ناديتها ، لم تجب . ارتميت فوقها وأجهشت بالبكاء . . لا أريد أن أستوعب أنها الآن جسم جامد بلا حياة ، كأي قطعة أثاث ، كالسرير والخزانة والطاولة . هل يعقل هذا؟ كيف تمحى حياتنا هكذا وتصبح ضربا من اللاشيء؟ وهل صحيح أننا نتابعها في الحياة الأخرى؟ لم أكن يوما متدينة ، وإن كنت أومن بالله وأصوم وأحيانا أصلي . لكن بصراحة لم أستوعب موضوع الحياة الأخرى والجنة والنار . هل يعقل أننا نشوى في النار؟ وكيف يستقيم هذا مع صورة الإله الرحيم؟ أكاد أستبعد تماما موضوع العذاب بالنار ، لأني لو آمنت بأنه حقيقي فسأكفر بالكثير من خصال الله وأسمائه الحسنى . الأفضل أن أكفر بالتفاصيل إذن وأبقى على إيماني بالله . ولكن هل هناك حياة أخرى أم أننا نتحول إلى لاشيء؟ مثل أي سيارة كانت جميلة وقوية ، تنهب الأرض بمجرد أن نلمس بقدمنا دواسة البنزين ، ثم فجأة تصبح كومة من المعادن والبلاستيك حين يصاب محركها بعطل . هذا ما يحصل معنا أيضا : يصاب محركنا بعطل لأي سبب فنتحول إلى كومة من اللحم والجلد والعظام ، فما الغرابة؟ هكذا هي جدتي الآن . يا حبيبتي يا ستي ، يا

facebook.com/the.Boooks

حبيبتي يا ستي ! وتابعت النشيج . كل مرة أبكي فيها أحس براحة غريبة بعدها . البكاء أصبح مصدر راحتي الوحيد . وهو متوفر والحمد لله . في حياتي الآن كل أسباب البكاء ، فلا خوف علي إذن . وانفجرت مرة أخرى . سالت دموعي حتى بللت الحرام الذي دثرت به جسد جدتي ، ثم لم تعد هناك دموع أذرفها ، فنهضت .

facebook.com/the.Boooks

- ٨ -

أعدت الغطاء على جسد جدتي ، وعدت لأكمل المهمة . أفرغت الخزانة من كل ما فيها من ملابس ووضعتها على الأرض ، ثم حاولت جرها إلى النافذة . لا تزال ثقيلة . لم أستطيع حتى زحزحتها . بدأت بنزع الرفوف ، ثم الأدراج ، وحاولت جر الخزانة مرة أخرى . هذه المرة نجحت بصعوبة ووضعتها أمام النافذة ، ثم استلقيت على الأرض من الإنهاك . فجأة أحسست أنها جاءتني ، أعني الدورة . يا ربي ، هل هذا وقته؟ لم يكن موعدها أصلا ، ربما الخوف والإثارة عجلا بها . وطبعا لم أكن مستعدة . لم تكن معي فوط صحية .

استخدمت المناديل الورقية في البداية ، ولكن هذا لن يكون حلا . بحثت عن منشفة صغيرة نظيفة ، طويتها وحشرتها بين ساقي . ثم عدت أستلقي فوق الملابس المكدسة على الأرض . هل سأبقيها على الأرض؟ لا ، سأنقل معظمها إلى خزانة أخرى في غرفة جدتي . لا ضرورة لذلك لكني أريد أن أعمل شيئا . . أي شيء ، لقضاء الوقت . بدأت بطيها بعناية ووضعها في الأدراج وعلى الرفوف ، ثم عدت إلى غرفتي .

facebook.com/the.Boooks

أحسست بالجوع . نفد الخبز منذ فترة . سأجرب أن أخبز . بحثت عن الدقيق ، لكني لم أجد خميرة . لم آكل خبزا منذ أيام وبدأ الأمر يسبب لي الضيق . الخبز يحتل حيزا مهما في نظامي الغذائي ، كما هي حال معظم الفلسطينيين ، وأنا الآن أفتقده بشدة . لم يسبق لي أن عجنت قبل الآن ، كنا نشتري خبزا جاهزا من مخبز قريب ، ولكن ليس الأمر صعبا كما أعتقد . وعدم استخدام الخميرة يعني أنني أستطيع الخبز بمجرد أن أنتهي من العجن . يعني ما علي سوى أن أخلط الدقيق بالماء وأضيف بعض الملح ، ثم أخبز . يجب أن يكون العجين رخوا حتى أستطع أن أرقه جيدا ، ومن ثم أخبزه بالمقلاة التيفال ، فيصبح مثل خبز الصاج .

بحثت عن «طشت» بلاستيكي ، وضعت فيه بعض الدقيق وأضفت الماء ، ثم بدأت أعجنه بيدي . أضفت كمية أخرى من الماء وقليلا من الملح وعدت للعجن حتى تشكلت عجينة رخوة جدا . قطعت منها قطعة صغيرة ورققتها في المقلاة ، وأشعلت موقد الغاز . أبقيت الشعلة في الحد الأدنى من القوة ، وانتظرت . بدأت العجينة تنضج تدريجيا . يا الله! هذا أول رغيف أصنعه في حياتي . هو لا يشبه الرغيف كثيرا لكنه يشبه الخبز . فرحت به بشكل لا أستطيع وصفه ، كررت العملية وأصبح عندي خمسة أرغفة . أحسست أني أنجزت شيئا استثنائيا . بلغ مني الفرح مداه . لن تصدقوا! بدأت أقفز

facebook.com/the.Boooks

من الفرح ، مثل طفلة صغيرة . هكذا احتفلت بالخبز الذي صنعته بيدي . حين هممت بالتوقف عن القفز خطر ببالي شيء : عندما كنت طفلة كنت أجد متعة غير طبيعية بالقفز فوق سرير والدي . كنت أتعرض للتوبيخ من الوالدة في كل مرة ، وفي إحدى المرات كسر لوح السرير تحت ضغط قفزاتي الرتيبة العنيفة . يومها ضربتني أمي . خفت من عقاب أبي حين يعود إلى البيت . حين طرق الباب في المساء هربت إلى الحمام وأغلقت الباب من الداخل . جاء أبي وطرق الباب : إطلعي أريح ما تخافي .

سألت وسط نهنهاتي : بدك تضربني؟

- لا يا حبيبتي اطلعي .

- بدكش تكسرني؟

قال ضاحكا : لا ولا بدي أمد إيدي عليكي ، افتحي .

فتحت الباب متوجسة وحين خرجت ربت على رأسي بدلا من أن يضربني ، وقال لي : الله لا يرده التخت ، أصلا كان قديم كثير ، بكرة بشتري غيره .

نظرت إليه غير مصدقة ، ليست عادته أن يكون متفهما ومتسامحا هكذا . ثم ، كأني أردت اختباره : يابا جيب تخت بزنبركات .

- ليش؟

- عشان اذا نطيت عليه ما ينكسرش .

facebook.com/the.Boooks

انفجر والدي بالضحك ، لا أدري لماذا . حين دخل إلى غرفته سمعته يقول للوالدة : يا مرة خليها تنبسط . مش قادرين نشتريلهم ألعاب ، كمان النط بدنا نستكثرو عليهم؟

ابتسمت ، وللمرة الأولى أحسست كم أحب أبي . . كم أحس بحاجته الآن ، لكني يجب أن أتعود أنني لوحدي الآن ، وعلي أن أواجه كل شيء لوحدي . نظرت إلى السرير الذي أنا عليه ، وابتسامة شريرة على شفتي . هو سرير قديم بزنبركات ، إذن يمكن القفز عليه دون أن يكسر . صعدت إليه وبدأت أقفز كالمجنونة . أحسست أنني أعود طفلة ، تابعت القفز وزاد إحساسي بالمتعة . ثم بدأت تلك المتعة تأخذ منحى آخر . منحى غير طفولي بالمرة . تلك المنشفة بين ساقي ، والقفز المجنون على السرير ، احتكاك أعضائي الحميمة بساقي وبالمنشفة . يا ربي ، هل هذا وقته؟ داهمني شعور يشبه ذاك الذي أحسسته حين قبلني عارف وبدأ يتحسس صدري . انهرت على السرير ، وضممت ساقي . خلعت سروالي الداخلي ونزعت المنشفة . كانت شبه جافة . لم أنزف كثيرا ، النزف يكون خفيفا في اليوم الأول . هي بضع قطرات فقط . مددت يدي بفضول إلى هناك ، وبدأت العبث بأصابعي . شعور غير مسبوق ، وفعل غير مسبوق . تماديت ، وتماديت أكثر ، وبدأت أصدر أصواتا بدأت كالهمهمة ، ثم استحالت تأوهات بدأت تعلو تدريجياً ، ثم : يما يا حبيبتي !! شيء مذهل حصل لي . كأنه انفجار ! متعة لم

facebook.com/the.Boooks

أحس بها يوما ، ورعشة غريبة . أعقب ذلك لهاث . كل هذه المتعة كانت كامنة في هذا الجسد دون أن أدري؟!

ثم فجأة ، تذكرت جدتي فأحسست بالهلع ، داهمني شعور بالاشمئزاز من نفسي . يا ربي ! انا بيش والدنيا بيش ! وبدأت أبكي بحرقة ، ثم تحول بكائي صراخا ، ثم نهضت من السرير واندفعت نحو غرفة جدتي ، احتضنتها وبقيت أبكي فوقها وأصرخ : سامحيني ! سامحيني يا ستي !

- إلى أن غفوت .

facebook.com/the.Boooks

- ٩ -

استيقظت على أصوات القصف الشديد ، كالعادة . كانت الغرفة مظلمة ، ولكني لم أعرف إن كان الفجر لم يطلع بعد أم أن ذلك كان بفعل الخزائن التي تحجب النافذة . سمعت إطلاقا كثيفا للنيران عند مدخل المخيم القريب من بيت جدتي . لم يعد هذا يثيرني . أصبح روتينيا . حتى الانفجارات لم تعد تسبب لي الهلع . نهضت وتوجهت إلى الحمام ، اغتسلت ، ودخلت المطبخ لإعداد كوب شاي بالميرمية . فكرت أن الماء ربما ينقطع قريبا فبدأت بملء كل الأوعية والزجاجات البلاستيكية المتاحة احتياطا . ثم جلست أرتشف الشاي بالميرمية .أنا أفضل من يصنع الشاي بالميرمية . ابتسمت . هذه الكلمات سمعتها من عارف ذلك اليوم . ربما قصد أن يتغزل بي ، على طريقته الخجولة . في ذلك اليوم ، بعد أن تعرض للضرب بسببي ، أحسست بشعور غامض نحوه . في صبيحة اليوم التالي قررت أن أزورهم للاطمئنان عليه . طرقت بابهم ، فتح الباب ، أحسست أنه ارتبك حين رآني :

- تفضلي .

facebook.com/the.Boooks

قال ، دون أن يفسح الطريق .

- طيب كيف بدي أدخل وانت سادد الباب؟

قلت مازحة .

أفسح الطريق وقد زاد ارتباكه

- كيف حالك؟

- بخير . تعالي ، فوتي عالصالون .أنا رايح أعمل لك شاي .

- لا ما تعمل اشي ، ملحق الشاي ، تعال نحكي شوي وبعدين أنا بعمل شاي .

جلسنا . أخبرني أن والدته غادرت للعمل في مشغل الخياطة في الصباح . . هو لا يعمل منذ سنة لأنه مريض ، وهي تعيله .

لم أرد أن أسأله إن كان أصيب برضوض أو كدمات ، حتى لا أحرجه . تعمدت تغيير الموضوع .

- شايف الحلق هذا اللي بذاني؟

رفع رأسه إلي وتأمل القرط في أذني ، ثم قال وابتسامة خجولة على شفتيه : شايفو .

- بالك من وين اشتريتو؟

تساءل : من جنين؟

- لا .

- ولا من وين؟

facebook.com/the.Boooks

- أحزر .

- من نابلس؟

- لا .

- طيب قولي انتي .

- أخوي هاني جاب لي اياه من السجن .

- من السجن؟

تساءل باستغراب .

- آه . هو عملو بإيدو .

تفحص القرط عن قرب .

- حلو؟

سألته

- كثير .

ابتسمت له .

- إنت عمرك ما انسجنت ، صح؟

- سجن لا ، ما انسجنت .

- ولا شو؟

- يعني طلبوني المخابرات للتحقيق ، ضربوني وبهدلوني .

- بس ليش ما انسجنت؟ كل شباب المخيم انسجنوا .

أحسست أن وجهه تغير ، أطرق بالصمت .

- مالك . زعلت؟

- لا .

facebook.com/the.Boooks

- ليش تغيرت؟ أنا قلت إشي غلط؟

- لا .

- طيب شو صار؟

- يمكن لأني عميل !

- سألت مصدومة : إيش؟

- قال بسخرية خفيفة : مش هيك بحكو عني؟

أدركت الآن أنني تسببت له بألم من سؤالي ، دون أن أقصد .

- مين اللي بحكي عليك هيك؟ أنا ما عمري حكيت .

قال وهو ما زال مطرقا : مش إنتي .

ثم روى لي قصته . لم تكن بالضبط كما كنت أظن . لم يكن عزوفه عن الانخراط في التنظيمات راجعا فقط إلى حرص والدته عليه وتحذيرها الدائم له . حام حوله الشباب من كل التنظيمات : من فتح والشعبية والديمقراطية ، حتى من حماس والجهاد الإسلامي ، رغم أنه لم يكن يصلي . كان يميل إلى فتح ، مثلي تماما ، لكنه لم يكن مقتنعا بالعمليات الانتحارية ، كما يسميها . وقد تعرض للبهدلة والبصق حين دخل في نقاش مع مجموعة من المتحمسين لها بعد أن استخدم هذه التسمية .

سألته : طيب شو مشكلتك مع هاي العمليات؟ مش شايف شو بعملو فينا؟

facebook.com/the.Boooks

نظر إلي . بدا مترددا في الحديث .

- ما بدك نحكي في الموضوع؟

- لا بنحكي .

مرت فترة صمت ، ثم تابع : أنا عندي مشكلتين مع هاي العمليات . أول إشي مش هم عاملين حياتنا جحيم؟ مش بيقتلوا مدنيين؟ مش بيهدمو بيوت؟

- آه

- ابن خالتي طخوه وهو رافع إيديه بدو يستسلم .

- مين أبن خالتك؟

- عبود . كان مع المطلوبين من فتح .

- طيب . اذن انتي مقتنع انهم مجرمين .

نظر إلي وتساءل بعتاب : إذن إحنا لازم نصير مجرمين زيهم؟ إذا هم بيقتلو مدنيين عنا واحنا بنقتل مدنيين عندهم ، شو بيصير الفرق بيننا وبينهم؟

لم أقتنع ، ورددت : ما تساوينا فيهم . هم اللي احتلوا بلادنا .

- صحيح . احتلوا بلادنا ، وبدنا نحررها . وأنا شايف إنو هاي العمليات ما بتأدي لهذا الهدف . وهذا هو اعتراضي الثاني عليها .

تساءلت باستغراب : كيف؟ هاي العمليات بتوجعهم .

facebook.com/the.Boooks

– صح . بتوجعهم ، يعني بتفش غلنا بس ما إلها أي نتيجة ثانية .

لم أدر بم أجيبه ، ولكني لم أقتنع . بصراحة أنا كنت أميل لفتح بدوري ، وكنت مقتنعة بالعمليات ، وكانت شيئا مسلما به بالنسبة لي كما للكثيرين ، ولم تستطع أسئلة عارف الغريبة أن تزعزع إيماني بها .

حين عدت إلى البيت كانت شخصية عارف في مخيلتي مختلفة تماما عن ذي قبل . كذلك بدأت أسئلة غريبة تدور في رأسي . بدأت شخصيته الحقيقية تقترب من ملامح الحلم الذي رأيته في تلك الليلة ، حين أنقذني من الفتية العابثين . هو ذكي ، يفكر بعقلانية لم أعهدها في شباب المخيم الذين أعرفهم . هم مندفعون بعاطفتهم الوطنية ، ولا غبار على ذلك ، لكنهم غارقون بتلك العاطفة ولا يفسحون أي مجال للتفكير . هكذا البنات أيضا . ينتمي الكثير منهن إلى واحد من التنظيمات المعروفة ، أما البقية فيتعاطفن مع واحد منها ، ولا فرق ، فالمنتمية والصديقة تردد ما تسمعه من قيادة التنظيم ، تصطف إلى جانب رفاقها في فعاليات التنظيم وخاصة احتفالات ذكرى انطلاقته ، وتدافع عن مسلكياته أيا كانت . لا أعرف بنتا واحدة ولا شابا بجرأة عارف . لم يثر أي منهم أية أسئلة ولم يعترض على قرار تنظيم أو سياسة أو مسلك . كلهم يرددون الشعارات والأغاني بفخر واعتزاز لا يشوبه أي شك أو

facebook.com/the.Boooks

تساؤل . ولكن ما هو أساس هذه الثقة العمياء؟ ألا يشجع هذا القيادة على استغلال الثقة ، وربما الانحراف؟ وما أكثر المنحرفين ! هل يكفي الاتفاق على العداء لإسرائيل لنتقبل كل شيء؟ ولماذا يكون هناك أكثر من تنظيم إذن؟ الجميع يعادي إسرائيل ، فما هو أساس الاختلاف؟ عارف يفكر ، يتساءل ، ربما لا يجرؤ على رفع صوته عاليا ، ولكنه وصل أسماعهم رغم ذلك ، وأنزلوا به العقاب لتجرؤه على مسلماتهم . كيف استطاع النجاة من قوة التيار الجارف؟ من أين له هذه الرؤية الواضحة المتماسكة؟ هو شاب بسيط ، على الأقل في ما يتعلق بالتعليم المدرسي . لم يلتحق بالجامعة بعد حصوله على الشهادة الثانوية ، بعكس نشطاء التنظيمات الذين يحصلون على منح ويدرسون بالجامعات . لكن ما فائدة ذلك إن كانوا سيستمرون في هز رؤوسهم وترديد الشعارات وراء قياداتهم؟ عارف ، حبيبي . ما أجمل هذه الكلمة . لوقعها سحر علي ، للمرة الأولى أتذوقه . لم يكن لي حبيب قبل ذلك ، ولم أجرب هذا الشعور . عارف ، أين أنت الآن يا حبيبي؟ هل أنت بخير؟ لو أنك بجانبي الآن! أنت هش ، ربما أكثر من أعرفهم هشاشة ، لكن وجودك إلى جانبي كان سيجعلني قوية . كنت سأحتضن هشاشتك وأحس بالقوة ، لماذا لست معي؟ لماذا؟

facebook.com/the.Boooks

- ١٠ -

أصبح القصف شبه متواصل . عاد لي الخوف . كنت قد اعتدت على صوت الرصاص وأصوات الانفجارات ، لكن القصف الآن أصبح مخيفا ، لا يتوقف للحظة . واضح أنه الهجوم الكاسح على المخيم ، فالمقاومة ضعفت كما أستطيع أن استدل من إطلاق النار المتقطع من داخل المخيم . ليست أصوات القصف وحدها التي ترعبني ، بل صراخ أشخاص ربما أصيبوا أو قتلوا في الجوار القريب والبعيد . انقطع الماء كما توقعت ، لكن لدي ما يكفي في المواعين والأوعية التي ملأتها . هذا سوف يكفي لمتى؟ من يدري إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ وهل سأخرج منه حية؟ يا ربي ، لماذا؟ لماذا لم أولد في مكان آخر؟ لا أريد أن أدخل في دوامة الجدل حول «نحن نفجر باصاتهم وهم يدمرون مخيماتنا» . لا أريد أن أفكر في الموضوع بشكل أخلاقي ، من له الحق ومن الظالم ، لكن لماذا لم أولد في بلد ليس فيه أي من هذا؟ هناك بلدان لا يفجر فيها أحد ولا يقصف بيت أحد . لماذا نولد هنا وسط هذا الجدل والركام والدماء؟غير معقول ، أختي وفاء في العاشرة ، وهي

facebook.com/the.Boooks

تجيد استخدام الكلاشنيكوف . أخي هاني أكبر مني بسنتين لكنه قضى ما مجموعه سنة في السجون الإسرائيلية ، وهو الآن مع المقاتلين في أحد أزقة المخيم . أخي حبيبي ، هل أنت حي يا ترى؟ يا ربي ، كيف لم أقلق عليه حتى الآن؟ حبيبي أنت الأكثر حنانا علي ، أكثر من أبي وأمي . حتى في سجنك فكرت بي وصنعت لي هدية . هي معي الآن ، لم تفارقني لحظة . أتحسس القرط في أذني والعقد المتدلي على صدري ، وعيناي تدمعان . هاني أنهى الثانوية بمعدل متواضع ولم يقدم طلبا لأي جامعة . ما كان والدي ليستطيع الإنفاق عليه . ربما لو لم يكن يقضي معظم وقته مع رفاقه في التنظيم ، حتى في موسم الامتحانات ، لكان حصل على معدل أعلى ، لكن هذا ما كان سيغير الوضع ، ولكن من يدري؟ ربما كان استطاع الحصول على قرض أو منحة . ربما كان التنظيم ساعده . ما جدوى هذا الآن؟ مصيره تقرر وانتهى الأمر .

كنت حزينة حين عرفت أنه لن يدخل الجامعة . بكيت وأنا أتحدث إليه . ربت على كتفي بحنان وقال : بلا هبل ! مين بدو يدرس في الجامعة؟ أصلا أنا تيس! ما بنفع للدراسة ، ههه ، وبعدين عندي أشغال أهم .

وأنا أعرف أشغاله المهمة لكني أعرف الكثيرين من تنظيمه ممن حصلوا على منح والتحقوا بجامعة بيرزيت أو النجاح . هو أدى التوجيهي في الوقت الخطأ ، مع بداية الانتفاضة الثانية .

facebook.com/the.Boooks

لم يكن ينام في البيت معظم الليالي ، واعتقل قبل الامتحانات بشهور . خرج قبل الامتحانات بأسبوعين .

نظرت إليه بعيون حزينة : طيب إوعدني بإشي .

ابتسم وقال لي : اللي بدك اياه .

– تستشهدش .

وانفجرت باكية .

ربت على كتفي : هبلة إنتي ، هبلة .

_طيب إوعدني .

قال وما زال مبتسما : طيب بوعدك . يلا روحي غسلي وجهك .

لكني لم آخذ وعده على محمل الجد . كيف يستطيع فلسطيني ، ابن مخيم ، أن يفي بوعد كهذا؟ ما أغباني ! وكأن الأمر متوقف عليه ! وكأن أحدا استشاره إن كان يريد أن يولد في بلد محتل ، لعائلة مهجرة ، في مخيم توصد بيوته أبوابها كل ليلة على اليأس ، وتفتحها كل صباح على البؤس .

Bummmm

هذه القذيفة سقطت في مكان قريب جدا ، لأن بيت جدتي اهتز بفعل الانفجار . سمعت أصواتا في الجوار ، أحدهم يقول : لا بلاش هون .

وضعت يدي على قلبي وتلاحقت أنفاسي من المفاجأة .

– بلاش هون شباب .

facebook.com/the.Boooks

- ليش؟

عارف؟ هو صوت عارف ! هل انضم إلى المقاتلين؟ غير معقول !

أردت أن أصرخ ، أن أناديه . عارف ! عارف ، حبيبي ! تعال أخرجني من هنا !

أصغيت ، لعلي أسمع صوته مرة أخرى ، لكن يبدو أنه ابتعد . هاجمني شعور بوحدة قاتلة . مللت من البكاء ، ما أغرب هذا الشعور ! كيف يمل الإنسان من البكاء؟ بكيت حتى أصبح البكاء روتينا ، لا يلائم وضعا كهذا .

كان يقول لهم «بلاش هون» . لا بد أنه يعرف أن هذا بيت جدتي وأنني فيه ، لم يكن يريد أن يعرضنا للخطر . لو اعتلى الشباب سطح المنزل وأطلقوا النيران لأصبح هدفا للقصف الإسرائيلي . حبيبي . أنت تحاول أن تحميني الآن أيضا . ولكن هل حملت السلاح أخيرا؟ لا يفاجؤني هذا ، الآن فرزت الألوان ، لا مجال للرمادية . هم يحاصرون المخيم ويجب أن لا نسمح لهم بدخوله . الجدل في أوقات السلم ترف لا يلائم ظرفا كهذا . ولكن ، أين هي أيام السلم؟ ابتسمت بمرارة . حياتنا سلسلة ليس فيها أثر للسلم . ، وإن كانت حدة اللاسلم فيها تتباين . أحيانا تمر بضعة أيام لا يعكر صفوها شيء . ثم تجتاح جيباتهم المخيم وتعتقل مطلوبين . أحيانا تنشب اشتباكات ويسقط قتلى وجرحى . تمر بضعة أيام روتينية ، ثم

facebook.com/the.Boooks

يأتون لهدم بيت . لماذا يهدمون البيوت بعد اعتقال ابن للعائلة؟ هو في قبضتهم ، يحققون معه ، يعذبونه ، ثم يقدمونه للمحاكمة ، يسجنونه ، وفوق ذلك يهدمون بيت أهله ويشردون عائلته . لماذا؟ الحمد لله أنهم لم يهدموا بيتنا ، لا أدري ماذا كنا سنفعل . يبدو أن تهمة هاني لم تكن خطيرة ، فهو لم يقض في السجن سوى ما مجموعه سنة ، لكننا عشنا في رعب طوال تلك الفترة ، خوفا من هدم بيتنا ، ولم نتنفس الصعداء إلا حين خرج هاني من السجن .

إذن حمل عارف السلاح . مع أي تنظيم يا ترى ، وهو لم يكن ينتمي إلى أي منها؟ لا أهمية لذلك الآن . هو لا بد أحس أن عليه أن يؤدي دوره ، كالآخرين . لا مكان للأسئلة حين نكون في مرمى نيرانهم ، هم لا يميزون ، هم يروننا لونا واحدا ، هدفا واحدا ، وعلينا أن نقف أمامهم صفا واحدا الآن . لا بد أن عارف توصل إلى هذا ، وهو الآن يحمل السلاح مثل غيره من شباب وفتيان المخيم ، ولا بد أنهم غيروا نظرتهم إليه الآن ، أصبح واحدا منهم ، يحمل السلاح مثلهم ، ويدافع عن المخيم .

لو طرق بابي! لو رأيت عينيه الحزينتين . لو . . . لو . . . لو ضمني ! لو . . . لو . . . لو قبلني . . آه ، هل كان سيفعلها؟ لم يجرؤ على ذلك من قبل ، رغم أني شجعته مرارا ، بنظراتي ، في خلواتنا القليلة . أمسكت يده أكثر من مرة ، فاحمر وجهه

facebook.com/the.Boooks

وترك يده بيدي ، لكنه بقي مرتبكا طوال الوقت . كنت أتمنى لو يضمني ، يقبلني ، وسنحت أكثر من فرصة . بيتنا ملاصق لبيتهم ووالدته تعمل من الصباح الباكر حتى الرابعة عصرا ، وهو لا يعمل منذ بدأ بتعاطي مضادات الاكتئاب . وكنا نختلي ببعض أحيانا لكن الشيطان لم يكن ثالثنا . . . إلا مرة واحدة . . . . هل أرويها؟ لا أرغب بذلك الآن . استعادتها في مخيلتي ستسبب لي الإثارة ، والوضع لا يحتمل . ربما في وقت لاحق .

facebook.com/the.Boooks

- ١١ -

اليوم هو عيد ميلادي السابع عشر . في العام الماضي صادف ظروفا مشابهة نوعا ما ، كان منع التجول مفروضا على المخيم ، وهذا يحدث كثيرا ، ولكننا لا نكترث له . «بنلحقش» . منذ فتحت عيني على هذه الدنيا وحياتنا سلسلة من المناكفات مع قوات الاحتلال : منع تجول ، هدم بيوت ، مطاردة مطلوبين ، إطلاق نار ، مظاهرات ، اعتصامات في المدرسة ، رجم الجنود بالحجارة . أنا لا أعرف نمط حياة غير هذا .لكننا مع ذلك نعيش حياتنا ، يتزوج الناس ويقيمون أعراسا ، يفرحون ، يرقصون الدبكة ويزغردون . قد يعتقل العريس ليلة عرسه ، أو في «الصباحية» ، أو في شهر العسل ، وقد يولد له طفل في أثناء غيابه إن منح وقتا كافيا ليغرس نطفة في رحم عروسه ، وقد لا يرى طفله إلا شابا يافعا أو صبية ناضجة . هذا يحدث كثيرا . نضال ، ابن مدرس اللغة الإنجليزية ، اعتقل ثاني يوم العرس ، لكن بطن عروسه انتفخ خلال شهور قليلة ، في أثناء غيابه .نحن الفلسطينيين منحتنا الطبيعة خصوبة استثنائية على ما يبدو ، تعويضا عن ما نفقد بشكل استثنائي . رجالنا يصيبون

facebook.com/the.Boooks

الهدف من ضربة واحدة . عروس نضال حملت ليلة الدخلة على ما يبدو ، حيث هو لم يقض معها سوى ليلة الدخلة ، ثم اعتقل ، وحكم ثلاثين عاما . حين يخرج من السجن سيكون مولوده شابا مفتول العضلات ، على أبواب الزواج ، هذا إن لم يكن قد تزوج وأنجب فعلا . أو فتاة تنتظر اليوم الكبير في حياتها ، أو ربما تكون قد تزوجت وأنجبت بدورها .

يوم عيد ميلادي كانت الدوريات الإسرائيلية تجوب أزقة المخيم ، وتعلن في مكبرات الصوت حظر التجوال .اتصلت بكل صديقاتي ، وجئن بلا استثناء . انسللن عبر الأزقة في لحظات غياب الدوريات وحضرن . لم أشتر كعكة عيد ميلاد ، لكن والدتي كانت قد أعدت المناقيش بالزعتر والصفيحة والسمبوسك ومعجنات أخرى . الطحين متوفر دائما ، الزعتر موجود ، ووجدت أمي في الثلاجة لحمة مفرومة وبعض الخضار . كانت هناك أيضا علبة بسكوت أحضرها أحد أقاربنا بمناسبة الإفراج عن شقيقي هاني من السجن ، وما كان ينقص سوى حضور الصديقات ، وقد حضرن رغم منع التجوال .

حضرت ياسمين وأحضرت كاسيتات أغاني ماجدة الرومي وجوليا بطرس وراغب علامة ، وفيروز طبعا .

هيفاء أحضرت كاميرا صغيرة والتقطت فيلما كاملا . أحضرت علبة ماكياج أيضا ، وأصرت أن تسحرني عروسا قبل الأوان .

facebook.com/the.Boooks

وسحر أحضرت المفاجأة : كعكة بالشوكولاتة صنعتها والدتها . لن يكون عيد ميلادي بدون كعكة إذن .

والدتي أعدت الشاي والعصائر وقدمتها .

وضعنا كاسيت لماجدة الرومي أولا في المسجل : ما حدا بعبي مطرحك بقلبي . وارتفعت الآهات من حناجر الصبايا . ثم «عم يسألوني عليك الناس ، الكانو يشوفونا سوا» . وارتفعت وتيرة العشق . لم يكن عارف مدعوا ، لكن حضوره كان قويا .

- شو هذا؟ حطو موسيقى نرقص عليها .

صاحت سحر وسط الضجيج .

- شو بدك؟ إرقصي ، هاي الموسيقى شغالة .

أجابت جمانة .

- لا بديش ، هاي مش موسيقى رقص . هاي موسيقى أحلام وآهات . حطوا إشي لأم كلثوم .

نهضت وأحضرت من غرفة هاني شريطا لأم كلثوم . وضعناه في المسجل .

- يلا قومي ورينا .

قالت جمانة موجهة الكلام لسحر .

- بديش .

أجابت سحر .

- شو بدكيش؟ مش إنتي طلبتي موسيقى رقص؟ هاي الموسيقى .

facebook.com/the.Boooks

وبدأت الصبايا يشجعنها كل من جهة ، أخيرا نهضت على استحياء .

- خذي هاي حطة لفيها على وسطك .

قلت .

قالت الوالدة تشجعها : يلا يا سحر ، ورينا شطارتك .

بدأت سحر الرقصة بحركات حيية ، ثم دبت فيها الحماسة ، وبدأت تهز وسطها بشكل أذهلنا جميعا .

- يا سلام !

-عظمة على عظمة .

واشتعلت الأكف بالتصفيق والحناجر بالتعليقات ، ودبت حماسة أقوى في سحر انعكست في حركاتها التي اكتسبت حيوية أكبر . وفجأة سمعنا طرقا على الباب . فتح حمودة الباب وصرخ من مدخل الشقة : يهود !

- وفي لحظة اقتحم خمسة جنود الغرفة التي كنا نحتفل فيها .

- شو بدكم؟

صرخت بهم .

- إنتو شو بعمل هون؟

سأل الضابط بعربية مكسرة

- بنرقص . شو بدك؟ ممنوع؟

- مين هذول؟ كيف أجو هون؟

facebook.com/the.Boooks

سأل مشيرا إلى صديقاتي .

- خواتي . ساكنين هون .

نظر إلينا الضابط بريبة . نقل عينيه بيننا ثم صاح باستنكار : كيف خواتك؟ توائم؟ خمسة توائم؟ هاتوا هويات .

أخرجنا بطاقات الهوية من حقائبنا . تفحصها وصرخ : كذابين ! إنتو مش خوات !

بدأت الصبايا بالصراخ : شو بدك يعني؟ عيد ميلاد هاي البنت ، وإحنا صاحباتها . نمنا عندهم قبل منع التجول ، عشان نحضر الحفلة .

ابتسم الضابط : في عيد ميلاد؟

أجابت والدتي : عيد ميلاد بنتي يا خواجة . ما عملوا إشي . خليهم فرحانين .

نظر إلى الطاولة حيث اصطفت الأطباق وعليها أصناف المأكولات والعصائر ، ثم نظر إلينا وخرج مع جنوده .

ما إن أغلق حمودة الباب وراء الجنود حتى انفجرنا ضاحكين .

أعدنا تشغيل المسجل بأعلى صوته ، وقمنا جميعا وبدأنا بالرقص .

-خالتي تعالي إنتي كمان ، يلا .

ابتسمت أمي بحياء .

-يلا يما ، تعالي .

facebook.com/the.Boooks

حلت ياسمين الحطة عن وسط سحر وربطتها على وسط والدتي .

-يلا خالتي ، إنتي بترقصي منيح ، رقصتي هذاك اليوم بعرس مهند ابن أخوكي ، ورينا .

أمي ما زالت تبتسم بخفر والجمهور يطالب بحماسة ، والموسيقى تصدح ، وليس أمامها خيار . وقفت أخيرا وبدأت حركاتها الأولى بحياء ، ثم فجأة دبت فيها طاقة لم أعهدها بها .

- هز ، هز ، هز ، يا أحلى وز .

أغلقت عينيها ، وبدأت حركاتها تأخذ طابعا حميما . بم كانت تحلم يا ترى؟ بمن كانت تحلم؟ هل كان لها حبيب سري؟ أم هو والدي المسكين ، سواق سيارة الأجرة؟ لا أدري لماذا لم أستطع أن أتصور والدي بدور العاشق . لا أدري حتى إن كان يمارس الجنس مع والدتي ، لا بد أنهما يفعلان ، وإلا كيف جئت أنا إلى هذه الحياة؟ إذن كيف لم أسمع تأوهات اللذة ولا مرة واحدة؟ مع أن غرفتي قريبة من غرفة نومهما؟ هل يمكن ممارسة الجنس بصمت؟ الأفلام القليلة التي رأيتها على كمبيوتر هاني خلسة تشي بغير ذلك . ربما توقفا منذ فترة ، بعد أن كبرنا ، أو يمارسانه بروتين صامت . نظرت إلى والدتي . وجهها جميل ، فيه نعومة ، ربما ورثتها عن جدتها الحيفاوية . جسدها ما زال جذابا رغم الحمل والولادة المتكررة وأعباء الحياة وقلة

facebook.com/the.Boooks

العناية . نظرة أخرى إلى وجهها الحزين كانت كفيلة بأن تقنعني بأن شيئا ما مفقود من حياتها . ربما تلك التأوهات التي لا أسمعها .

- يا سلام يما ، شو هذا؟ وين كاين مخبا؟

قلت أشجعها .

بدأت حركاتها تتراخي ثم انهارت على الأريكة . فجأة بدأت دموع تسيل على خدها .

ركضت إليها وحضنتها .

- شو يما؟ شو يا حبيبتي؟ شو صار؟

قالت برقة : ولا شي ، ولا شي يا روحي ، من الفرحة ، من الفرحة فيكي يا حبيبتي .

احتضنتها مرة أخرى ، وجاءت الصبايا واحتضنّها بدورهن .

- من الفرحة يما ، من الفرحة .

لكن تلك لم تكن دموع فرح .

أين أنت الآن يا أمي؟ وما هو سرك؟ ما الذي أبكاك في ذلك اليوم؟ والله لن أتردد في أن أدفع نصف عمري لأعرف . يا حبيبتي يا أمي . أنت لست سعيدة البتة .

وأنت يا أبي؟ لم أرك يوما تبكي ، إلا حين داهم الجنود بيتنا ، كنت طفلة في التاسعة ، أرادوا اعتقال هاني الذي لم يكن يتجاوز الثانية عشرة . هل هذا كل ما في حياتك؟

facebook.com/the.Boooks

أطفالك؟ عائلتك؟ ألم تكن لك أنت أيضا قصة سرية ما ، تبكيك حين تتذكرها في لحظاتك الحميمة؟ يا حبيبي يابا ! لا أراك إلا متعبا . تخرج بسيارتك من «طيز الليل» وتعود في أول الليل . لكنك لا تشكو ولا تتذمر . ولا أراك إلا وفي يدك سيجارة . كم تدخن منها يا ترى؟ راودني فجأة قلق على صحة والدي . أليس هذا غريبا ، وأنا في هذه الظروف؟

اليوم أتممت سنتي السابعة عشرة ، كل سنة وأنا سالمة . الآن أدركت معنى هذه العبارة : كل سنة وانتي سالمة ! هل سأسلم فعلا؟ هل سأعيش لاحتفل بعيد ميلادي القادم؟

facebook.com/the.Boooks

- ١٢ -

اليوم سأستقبل صديقاتي ، كما اعتدت مساء كل خميس ، نعقد جلسة نميمة في غرفتي لا يسلم منها لا المدرسات ولا الطالبات الأخريات ولا حتى الأهل . نضع كل ما حدث خلال الأسبوع في حياتنا وحياة الآخرين على الطاولة . اليوم هو الخميس ، ولن يكون استثناء . سيحضر الجميع . كلهم بخير ، على قيد الحياة ، وبصحة جيدة ، ولم يصابوا بأذى . ها هو الباب يطرق . لا بد أنها سحر .

أخرجت من البراد ثمرة باذنجان ، قربتها من وجهي وبدأت أتحدث إليها : أهلا سحر . لم أرك منذ فترة . أين كنت يا شقية؟ مشاكل؟ ومن ليس عنده مشاكل؟ والدتك «حردانة»؟ ذهبت إلى بيت جدك؟ لماذا؟ والدك يريد أن يتزوج عليها؟ أنت حزينة يا حبيبتي ، ومعك حق ، معك كل الحق . ماذا دهاه؟ بناته صبايا وأولاده شباب ! وأمك أفنت عمرها معه . نعم ، معك حق . هكذا هم الرجال ، يمتصون رحيق المرأة ثم يلقون بها . تكرهينه؟ لا أظن . هو والدك على أي حال . هل حاولت التحدث إليه؟ ربما استمع إليك . حاولي . لا تيأسي . ابتزيه .

facebook.com/the.Boooks

نعم ، ابتزيه عاطفيا . إبك أمامه ، لا بأس ، أشعريه بالذنب . دافعي عن أمك ، عن كرامتها . لا تتحدثين معه؟ أضربت عن الكلام؟ لا أظن أن هذه طريقة ناجعة ، بل حدثيه ، قولي له إن العائلة ستنهار . إن مستقبل إخوتك الصغار سيدمر . لحظة ، ياسمين على الباب ، سأفتح لها .

(أحضرت ثمرة كوسا وكررت معها ما فعلت سابقا) :

- أهلا ياسمين ، سحر سبقتك . هي تجلس في الداخل ، حزينة . أنت أيضا حزينة؟ ما بك؟ أخوك شادي اعتقل؟ شدي حالك يا عزيزتي ، سيخرج شادي إن شاء الله . تفتقدينه؟ أنا واثقة من ذلك . لكنه سيخرج وسيحضر لك هدايا . نعم ، هدايا ، من السجن ! أنظري إلى هذا العقد ، هل يعجبك؟ وهذا القرط في أذني ، هل هو جميل؟ هاني جلبهما لي هدية من السجن ، صنعهما بيديه . وشادي سيصنع لك شيئا جميلا . وكذلك سيتعلم العبرية ، مثل هاني . هاني لم يكن يعرف كلمة واحدة حين دخل السجن ، تعلمها خلال بضعة شهور هناك . امتحانات التوجيهي؟ لن تضيع عليه ، لا تقلقي . سيؤديها في السجن ، وربما حصل على معدل أفضل مما لو أداها خارجه . في السجن لديه كل الوقت للدراسة ، لن يكون مشغولا بشيء . اطمئني ، سيخرج بشهادة التوجيهية ، وسيلتحق بالجامعة . لحظة ، سأفتح الباب لجمانة .

أحضرت ثمرة بندورة من الثلاجة ، وبدأت الحديث إليها .

facebook.com/the.Boooks

أهلا جمانة . أخيرا وجه مبتسم . خير؟ تبدين سعيدة ، أبوك لن يتزوج على أمك ، وأخوك لم يعتقل . الفرح يشع من عينيك . ما الذي حصل؟ وشوشيني ! أو لست مضطرة للوشوشة ، ليس هناك غريب . سحر وياسمين . ماذا حصل بالضبط . جربت أول قبلة؟ آه يا شقية . مع من؟ مراد؟ طبعا ، كلنا نعرف حكايتكما .كيف كان الشعور؟ تبدين وكأنك في حلم . متى حصل هذا؟ قبل نصف ساعة؟ ولماذا لست معه الآن؟ آه ، هربت ، أطلقت ساقيك للريح ، لماذا يا هبلة . خفت؟ وكيف كان طعم القبلة؟ القبلة الأولى مثيرة ولكنها أحيانا تكون مخيبة للآمال . نعم ، اسأليني أنا . تعرفينه ، عارف ، ابن جيراننا . لم يحاول تقبيلي ، أنا قبلته . هو لم يبادر ، رغم تشجيعي . أنا أزوره في بيته . والدته تذهب إلى العمل في الصباح ولا تعود إلا بعد العصر . أنا أتسلل إلى بيته بعد عودتي من المدرسة ، وقبل أن أدخل بيتنا . نتحدث عن كل شيء : عن السياسة وأهل المخيم ومشاكله . تفكيره يعجبني . لديه أفكار غير مألوفة لكنها رائعة . هو بدأ بتعليم أمه القراءة والكتابة . هي أمية مثل الكثيرات من نساء المخيم . بدأ بتعليمها الحروف الأبجدية قبل شهور ، لا تتقدم بسرعة ، لكنها الآن تستطيع أن تقرأ وتكتب كل الحروف الأبجدية ، وبعض الكلمات . تكتب اسمها واسم عارف ، وهي فخورة بذلك . فخورة بنفسها وبابنها ، وأنا أيضا فخورة به . تصوري ،

facebook.com/the.Boooks

هو يريد أن ينظم حملة لمحو الأمية في المخيم . جمعية الاتحاد النسائي لديها دورات منتظمة ، لكنها غير كافية ، ومعظم النساء لا يجدن الوقت الكافي . عارف يريد أن يحذو أبناء المخيم حذوه . كل شاب أو صبية يقوم بتعليم أمه ، ويكون هذا ضمن حملة منظمة . تحدث إلى شباب التنظيمات ، سخروا منه ، تعرفين ، هم مشغولون بأشياء أهم ، تحرير فلسطين ، من النهر إلى البحر طبعا . لا وقت لديهم لنشاطات كهذه . حين كان يشرح لي الفكرة قبل أن يتحدث إلى الشباب كان متحمسا . حين يتحدث بحماسة عن شيء يؤمن به أجده ساحرا . أحس بانجذاب قوي إليه . أجده في غاية الإثارة . حين ينفعل يستخدم إشارات اليدين بكثرة . فجأة أمسكت إحدى يديه ، فوجئ . توقف عن الحديث . قلت له : تابع . استمر . أنا أستمع . بدأ صوته يتهدج ووجهه يحمر . ضغطت يده ، ثم اقتربت منه حتى التصقت بجسده أحسست به يرتجف . اقتربت بوجهي من وجهه ، تحسسته ، ثم اقتربت بشفتي من فمه ، لامست بهما شفتيه ، أحسست بهما ترتجفان ، ثم فجأة ، تحرر من كل خوفه ، أطبق على شفتي واعتصرهما بقسوة . كان فنانا . اعتصر شفتي السفلى بين شفتيه ، ثم اليمنى ، ثم أدخل لسانه في فمي . أين كان كل هذا؟ أحست أن في داخله شخصا آخر غير الذي أعرفه ، عاشقا محترفا . ثم أخذت يده زمام المبادرة . بدأ يتحسس صدري . وأنا أتأوه . بدأ يفك أزرار

facebook.com/the.Boooks

بلوزتي ، وانا أزداد إثارة . كنت اقترب بسرعة مذهلة من الرعشة المجنونة ،لم يبق الكثير لأبلغها . ثم فجأة سمعنا المفتاح يدور في القفل . عادت والدته ، أجهضت الفعل . أحسست بإحباط شديد . أعدت ثيابي إلى وضعها الطبيعي بسرعة ، أخرجت مشطي من حقيبتي . مشطت شعري بسرعة ، ثم عدت أجلس على الكرسي مقابله ، وكأن شيئاً لم يكن . دخلت والدته ، ابتسمت وسلمت علي .

- إسكتي ، مش تعلمت الأرقام؟ صرت بعرفها كلها .

ابتسمت لها بدوري وقلت : يعطيكي العافية يا خالتي إم عارف ، والله إنك شاطرة

أحسست بوقع الإطراء عليها ، فرحت مثل طفل صغير .

- الله يرضى عليه عارف ، لولاه .

نظرت إليه بفخر ، كان الارتباك ما زال باديا عليه .

بدأت أستعد للمغادرة ، كانت أم عارف قد دخلت المطبخ وبدأت بإعداد الغداء . نظرت إلى عارف ، خطفت قبلة سريعة من شفتيه ووقفت .

- بخاطرك خالتي إم عارف .

- خليكي تغدي يا حبيبتي .

- تسلمي ، صحتين وعافية .

خرجت ، ومذاق شفتيه يلازمني ، وتلك اللذة الغامضة التي لم تكتمل . طرقت باب بيتنا ، فتحت لي وفاء . مسحت

facebook.com/the.Boooks

شعرها بيدي ودخلت مباشرة إلى غرفتي . انهرت على سريري ، أغمضت عيني وأسلمت نفسي لخيالات لذيذة ، لم أفق منها إلا على صوت والدني :

- أسخن لك الغدا يما؟ طابخين خبيزة .

facebook.com/the.Boooks

-١٣-

اشتقت لغرفتي . هي ليست غرفتي لوحدي ، فيها سريري وسرير أختى وفاء (فوفو) ، لكن فوفو لا تدخلها عادة إلا للنوم . لذلك يمكنني أن أقول إنني أتمتع ببعض الخصوصية فيها . أحيانا أحتاج أن أكون وحدي ، وهذا متاح في معظم الأحيان . أحلم ، أسافر إلى عالم الخيال ، أحلق في فضاءات أخرى ، دون أن يزعجني أحد . حين كان هاني في مثل سني لم تكن هذه الخصوصية متاحة له ، لأنه كان ينام في غرفة الصالون التي تعتبر ممرا للجميع ، لكن هاني لم يتخل عن حقه في الخصوصية ، فقد تفتق ذهنه يوما عن فكرة عبقرية : نصب خيمة صغيرة في وسط الغرفة ووضع الحشية التي كان ينام عليها فيها . لا أدري إن كان هذا وفر له خصوصية حقيقية ، لكنه على الأقل أصبح غير مرئي لبقية أفراد العائلة . هاني يتمتع بخيال مبدع ، ومن يشك في هذا عليه أن يلقي نظرة على الأقراط والعقد التي صنعها لي في سجنه . آه يا حبيبي يا أخوي ، أين أنت الآن؟ كم ظلمك القدر .

facebook.com/the.Boooks

أفتقد غرفتي . أفتقد سريري وأوراقي وملابسي . لم أحضر معي الكثير من الملابس حين جئت للإقامة عند جدتي ، كان يفترض أن أقيم هنا بضعة أيام ، لحين عودة عائلتي من عمان . كل ما أحضرته هو البيجاما وغياران داخليان وبنطلون جينز وبلوزتان . علي أن أغسل ملابسي الداخلية التي أخلعها كل يوم . أما كتبي فلم أحضر منها سوى كتاب الرياضيات وكراسة فارغة ، هذه التي أكتب الآن فيها يومياتي . لكن من يدري ماذا سيحل بالمدرسة؟ من يدري إن كنا سنؤدي امتحان التوجيهية هذا العام؟ من يدري ماذا سيحل بي؟ هل سأبقى على قيد الحياة أصلا؟ لماذا كان هذا قدرنا؟ أي ابتلاء هذا يا ربي؟ طردونا من بيوتنا وتبعونا إلى هذا البؤس أيضا؟! أمي تقول إن بيت أهلها في عين حوض كان من حجر ، وكانت له حديقة . كانت طفلة صغيرة حين اندلعت الحرب وهجروا من قريتهم ، لكنها تذكر البيت والحديقة بكل التفاصيل الصغيرة . كان والدها يعمل في مصلحة البريد وكانوا يعتبرون من الموسرين ، ثم فقدوا كل شيء . الكثيرون من مخيم جنين كانوا من سكان تلك القرية ، عين حوض . القرية ما زالت قائمة ، رأيت صورها على الإنترنت . البيوت الحجرية ما زالت كما هي ، لكنهم حولوها إلى قرية يقيم فيها رسامون يهود ، ليرسموا فيها ما يبدعه خيالهم من واقع جميل . هل يا ترى يخطر ببالهم أن تلك البيوت كانت ملكا لغيرهم؟ هل يفكرون بما آل إليه

facebook.com/the.Boooks

سكانها؟ هل لنا نصيب في لوحاتهم الجميلة؟ أم أنهم يطردون حتى الهاجس؟

أفتقد عائلتي أيضا . هذا يوم الحنين . أحن إلى كل شيء : غرفتي ، صديقاتي ، مدرستي ، أهلي . هل هذا فأل سيء؟ هل يعني أن النهاية تقترب؟ لم أكن يوما أومن بهذه الخزعبلات ، أما الآن فلم اعد أومن بشيء . كيف لي أن أرى في هذا العالم غير العبث ونحن هنا نترك لنموت تحت الأنقاض ولا يكترث أحد في هذا العالم الواسع لمصيرنا؟ هذا العالم أخو شرموطة ، كله ! بعربه وأوروبييه وأمريكييه ! لا أحد يكترث لنا !

أحس بالجوع ، وآلام الدورة بدأت تشتد علي . لماذا جاءت الآن؟ هل أنا «ناقصة هموم»؟ ليس معي ما يكفي من الغيارات الداخلية ، والآن صار علي أن أغسل كل يوم ، والماء شحيح .

بقي بعض الخبز الذي خبزته يوم أمس ، وبعض المعكرونة . سأسخنها في الفرن وأتناول وجبة . ربما كان علي أن أخبز مرة أخرى ، لا بأس ، ما زال هناك بعض الدقيق . سأخبز بضعة أرغفة بعد الغداء .

بوم بوم بوم ! انفجارات متلاحقة .

أصوات سيارات إسعاف . أين تذهب تلك السيارات بالجرحى؟ ليس في المخيم مستشفى ، ولا أظن أن بإمكانها أن تصل إلى جنين . لا أظن أن الجيش يسمح لها .

facebook.com/the.Boooks

- في حدا هون . في حدا هون؟

طرق على الباب وصوت غير مألوف .

- يا جماعة افتحوا ! في حدا هون؟

ماذا أفعل الآن؟ الصوت غير مألوف . أكثر من صوت في الحقيقة .لا بد أنهم مسلحون يريدون الصعود إلى السطح ، هل أفتح لهم أم ألتزم الصمت؟

- آه آه آه .

سمعت صوت رصاص يلعلع في القريب ، أعقبته صرخات . لا بد أن أحد الشباب جرح .

- إحمل معي يا يوسف ، مؤيد انجرح .

ابتعدت الأصوات تدريجيا ، ثم اختفت .

أحسست بالذنب ، لكن الشعور لم يدم طويلا . لا شيء يدوم طويلا في هذه الظروف . حتى موت جدتي تعودت عليه . حتى موتي أنا بدأت أتصالح مع إمكانيته . هو الاحتمال الأكبر ، لن تحدث معجزة ، أنا لا أومن بالمعجزات . لا بد أن تخترق البيت قذيفة . قد يحدث هذا اليوم أو غدا أو في أي يوم آخر . هي مسألة وقت ، ولكن تبدو لي حتمية . لم أعد أكترث كثيرا . أعيش كل يوم بيومه . لا أعرف شيئا عن ما يجري في الخارج ، ناهيك عن ما يجري في العالم الواسع . هل يجري أي شيء على الإطلاق؟ هل يجتمع مجلس الأمن؟ الجامعة العربية؟ وزراء الخارجية العرب؟ ثم ماذا؟ يتناولون وجبة دسمة

facebook.com/the.Boooks

ثم يغادر كل منهم إلى حياته الآمنة . طز ! يصدرون قرارات ، يثرثرون ، أما نحن فنموت هنا . منذ عقود وهم يجتمعون ، يصدرون قراراتهم ، يلتهمون وجباتهم الفاخرة ، وبؤسنا يتفاقم . اللعنة على هذا العالم ! اللعنة على هذه الحياة ! لماذا نحن ، لماذا . من دون شعوب الأرض؟ أي ثمن ندفعه؟ المؤمنون يقولون إن هذا ابتلاء من الله . لماذا لا يبتلي غيرنا بين الفترة والأخرى؟ هل يحبنا إلى هذه الدرجة؟ وهل يمكن أن يمنحنا إجازة يوما ما من هذا الحب؟ لسنين قليلة فقط يا رب ، ألا تجد غيرنا لتحبه؟

بوم .

قذيفة أخرى في الجوار ، وجدران البيت ارتجت حتى أحسست أنه سينهار فوق رأسي . لماذا لا ينهار؟ تعبت من هذا الانتظار ! تعبت ! يارب قذيفة أخرى ! يا رب رصاصة طائشة . تعبت ! تعبت !

facebook.com/the.Boooks

-١٤-

الحب يصنع المعجزات ، هكذا يقولون ، أما أنا فرأيت هذا يتجسد أمام عيني . منذ تلك القبلة الخجولة ، الجريئة ، المترددة ، العنيفة استحال شخصا آخر . فعلت به شفتاي ما عجزت عنه الأدوية المضادة للاكتئاب التي يواظب عليها . بقبلة واحدة تحرر من خجله وخوفه وتردده ، حين أخذ زمام المبادرة في الحب امتلك حياته وأصبح سيد خطواته . حتى مشيته تغيرت ! لم يعد يمشي مطرقا يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا ، بل أصبح ينظر إلى الأمام ويسير بثبات من يعرف وجهته . هو كان يعرف وجهته دائما ، ربما أفضل من كثيرين من أولئك الذين يملؤون الفضاء صراخا وضحكات وأوامر ، لكن اهتماماته أعمق من اهتماماتهم ، رؤيته مختلفة ، وطبعا سلوكه مختلف .

الانطوائية لم تكن راجعة إلى طبيعة فطرية في شخصيته ولا إلى خلل سلوكي كما اكتشفت ، بل إلى الضغط الذي تعرض له من محيطه .

هو الآن عاشق ، خاض غمار القبلة فارتفعت نبرة صوته ، كما لو أنها تريد أن تعلن للعالم بصوت عال أنه منذ الآن غيره . صار

facebook.com/the.Boooks

يبادر لترتيب المواعيد ، ميالا للتواطؤ ، يخبرني بمواعيد غياب أمه عن البيت حتى يتسنى لي أن أسرق موعدا . تبادلنا أكثر من قبلة طويلة ، لكننا لم نذهب أبعد من ذلك . حاولنا مرة وفاجأنا صوت دوران المفتاح في قفل الباب ينبىء بوصول أمه . كان توقيتنا للفعل سيئا . كان قد بدأ يتحسس جسمي ، ابتدأ من الحروف الأولى أبجديته ولم يتجاوزها لأن صرير الباب أيقظنا من الحلم اللذيذ في بدايته . شعرنا بالخوف . دخلت أمه ونظرت إليه ثم إلي وابتسمت . لا بد أنها خمنت كل شيء . أحسست بالاحراج . هي امرأة طيبة تحب ابنها ، كل الأمهات تحب أبناءها ، لكن حب أم عارف له مختلف ، حب مشوب بالخوف واللهفة ، تخشى دائما أن ينتزع من بين أيديها ، فهل أحست يا ترى بأني بدأت انتزاعه من أحضانها؟ هل تدرك أنه بات الآن في حضن امرأة أخرى؟ لو أحست لكان معها كل الحق ، فهو بدأ يخطو أولى خطوات التمرد على حبها ولهفتها . بدأ ، في العشرين ، يفرد جناحيه ويحاول التحليق في فضاء آخر . قال لي إنها بدأت توجه له أسئلة مواربة عن علاقتنا . هي فرحة بها وخائفة منها في آن . قالت له إنها تريد أن تفرح به ، ككل أم ، لكنها بكت ، فهي لا تريده أن يغادرها إلى حضن امرأة أخرى . لأول مرة يحتد عارف ويحدث والدته بنفاد صبر ، يحس بعدها بتأنيب ضمير ويحاول استرضاءها ، لكن حدس الأم رأى ما وراء كل ذلك . لم يعد ابنها ملكها وحدها ، أصبح لها فيه شريكة ، امرأة أخرى .

facebook.com/the.Boooks

- ١٥ -

الوقت يطحنني . عملت كل ما أسعفني به خيالي لقتله ، وما كان كافيا . استعدت كل ألعاب الطفولة التي كانت تملأ علينا حياتنا : «بيت بيوت» ، لكن دون صديقاتي هذه المرة ، وبوعي فتاة مكتملة الأنوثة ، فتاة عاشقة تحلم ببيت حقيقي مع حبيبها . الوقت ما زال مبكرا على ذلك فأنا بعد صغيرة ، أتممت السابعة عشرة لتوي لكن وقتي ينفد . نحن هنا لا نخضع لدورة الحياة الطبيعية كما بقية خلق الله : طفولة ، مراهقة وبلوغ ، شباب ، كهولة ، شيخوخة .

طفولتنا فريدة ، ولا أريدكم أن تفهموا من هذا أنني أفضلها كذلك ، أبدا ، بل أمقتها ، لكن ليس معنا خيار .

بداية ، فضاؤنا محدود ، حدوده لا تتجاوز البيت الصغير المكتظ ، بغرفه القليلة وسكانه الكثيرين ، أزقة المخيم الضيقة ، والمدرسة بصفوفها المزدحمة الصغيرة وقوانينها الصارمة .

بيتنا مكون من غرفتي نوم وصالة تتحول بدورها إلى غرفة نوم ثالثة في الليل .

أبي وأمي يحتلان إحدى الغرفتين ، أشترك أنا ووفاء في الغرفة الأخرى ، أما هاني وحمودة فيناما في الصالة .

facebook.com/the.Boooks

لا مجال لحياة خاصة في بيتنا ، وأكثر من يفتقدها أخي هاني ، هو تجاوز العشرين والبقعة الوحيدة التي يمتلكها في المنزل هي الحشية التي ينام عليها في الليل . يفترشها في بداية الليل ويغادرها مع بداية النهار . وما عدا ذلك فهو مشرد ، يقضي معظم وقته خارج البيت ، مع الشباب في المخيم . هو ينتمي إلى تنظيم فتح ، التزاماته التنظيمية تبتلع الكثير من وقته ، وربما كان في هذا حل معقول لغياب فضائه الخاص في المنزل ، هو يعوضه إذن بأن يقيم في الفضاء العام . . لا أدري إن كانت له حبيبة ، مازحته مرة ولحت لذلك ، ابتسم ولم يقل شيئا . أنا أحبه ، هو أقرب أفراد العائلة إلى قلبي . لا يمارس علي سلطة مثل بقية الإخوة . سحر قالت لي إن أخاها يراقب كل حركة من حركاتها ، يجري معها تحقيقا صارما كلما تأخرت عن البيت دقائق بعد انتهاء موعد الدوام المدرسي ويضربها أحيانا . لم يرفع هاني يده علي مرة واحدة .

غرفتي صغيرة لا تتجاوز مساحتها ١٢ مترا مربعا ، فيها خزانة صغيرة نحشر فيها ملابسي وملابس وفاء ، حشيتان على الأرض ، واحدة لي وواحدة لها ، وهذا كل ما هنالك . هذه حدود عالمنا المنزلي . أحتكر في الخزانة درجا خاصة أغلقه بالمفتاح ، كنت أضع فيه أشيائي الخاصة . لم أكن أملك الكثير من الأشياء الخاصة حتى قبل شهور : كنت أحتفظ في الدرج بالكراسة التي أكتب فيها خواطري . لم يكن فيها ما يستدعي

facebook.com/the.Boooks

هذه السرية حتى قبل شهور قليلة حين بدأت علاقتي بعارف . عندها أصبحت تلك الكراسة مخزن أسراري ، تضم بين دفتيها فضائي الأرحب ، أحلامي المجنونة . أدون فيها ما يحصل معي وما أتمنى أن يحصل ولا يمكن أن يحصل في الواقع . خيالاتي الجامحة لا تقف عند حد . لو يقرأها هاني ربما لم تسعفه وداعته وطيبة قلبه . ربما تغلب فيه «الأخ الكبير» حامي شرف العائلة ، وغسل شرف العائلة بصفعات مدوية على وجنتي . لا أريد أن أتخيل هذا ولا أسمح لإهمالي وتقصيري أن يعطيه فرصة . الدرج مغلق بإحكام على جنونياتي ومفتاحه معلق في رقبتي .

حياة أختي وفاء تجسيد للحرمان الذي يعيشه الأطفال في المخيم . عالمها لا يتجاوز مساحة بيتنا الصغيرة والزقاق المجاور له ، وفناء المدرسة طبعا . هي لذلك تتفنن في مد حدود فضائها قدر الإمكان ، فتستبيح كل شبر في البيت ، تتنقل بين غرفه بحرية ، تقضي وقتا على سرير والدي في غرفة نومهما ، وهو السرير الوحيد في البيت ، يخدم أغراضا عدة : فبالإضافة إلى أنه مسرح للحظات أمي وأبي الحميمة ، إن توفرت ، هو مسرح لألعابنا أيضا . القفز فوقه هو أهم الألعاب المسلية التي نمارسها في طفولتنا . وفاء لا تكتفي بأن تقفز عليه وحيدة كما كنت أعمل وأنا في سنها ، بل تقيم عليه حفلات قفز جماعية ، بمشاركة بنات الجيران . لحسن الحظ ، وبعد أن تكسر السرير القديم تحت قفزاتي العنيفة استمع أبي إلى نصيحتي واشترى

facebook.com/the.Boooks

سريرا بزنبركات قوية . وفاء أيضا تمارس عليه كل ألعابها مع صديقاتها ، وأهمها وأكثرها إثارة «عريس وعروس» . لا أظن أن للموضوع تداعيات جنسية في مخيلاتهم ، فهي لم تتجاوز التاسعة ، لكن اللعبة تتحول إلى حفلة عرس حقيقية : تتحول الستائر البيضاء التي تفكها عن النافذة إلى ثوب العروس وتصنع من أحد مفارش الطاولات طرحة . تستخدم الألوان ، المدرسية لعمل ماكياج فظيع للعروس ، لكنه بصراحة ليس أفظع من ماكياج العرائس الحقيقي : معظم الصالونات المتخصصة تبالغ باستخدام الماكياج وتجعل وجه العروس منفرا . أنا قلت لعارف إنني لا أريد ماكياج عرايس حين يأتي ذلك اليوم ، وهو وافقني .

وفاء وصاحباتها يحفظن أغاني الأعراس عن ظهر قلب ، ويرددنها في أعراسهن المسرحية ، ولا يغيب الرقص على أنغام الأغاني الشائعة التي تنطلق من مسجل هاني . كل إمكانيات البيت مسخرة للعبة «العريس والعروس» ، ولا ينقصها سوى شيء واحد : العريس . فلا يشارك في اللعبة فتى واحد ، ولكن يبدو أن غياب العريس لا يعطل سير العرس ، فالبنات يعشن الدور بشكل مقنع تماما ، يستعن بالخيال وما تيسر من اللوازم ، ويصنعن فرحا غائبا ، ويعوضن ألعابا غير متاحة .

في غياب «الباربي» الباهظة الثمن تصنع وفاء دمى باستخدام قطع ملابس بالية وأزرار . قطع الملابس القديمة هي

facebook.com/the.Boooks

المادة الأولية لكل ألعابنا تقريبا ، فمنها يصنع الفتيان كرات اللعب أيضا ، في غياب الكرات الحقيقية .

الألعاب تعوض ، وغيابها ربما لم يحدث ضررا بالغا في طفولتنا ، لكن ما أمقته هو عسكرة حياتنا منذ سن مبكرة . الأطفال يستدعون للمشاركة في المظاهرات ورجم الجنود ، يتعرضون للخطر ، يصابون بالرصاص حينا ، ويقعون في أيدي الجنود . لا يروقني هذا ، وقد اصطدمت أكثر من مرة مع شباب التنظيم . وحين سمح هاني لوفاء بحمل الكلاشن تشاجرت معه . بل هو ذهب أبعد من ذلك : سمح لها في عيد ميلادها بأن تطلق مخزنا كاملا . يومها صرخت به لكنه لم يكترث بل كان رده قهقهة استفزتني . هو كالكثيرين غيره ، لا يرى في ذلك شيئا مكروها .

خفتت أصوات الرصاص ، لكن حدة القصف لم تخف . هذه ليست بادرة جيدة ، لأنها تعني أن المقاومة تموت والاجتياح وشيك . ماذا سيفعلون بنا؟ هذا لو وجدونا أحياء أصلا . كم هو غريب أن أفكر بهذه البرودة وهذه الحيادية وكأني أتفرج على المشهد من بعيد . صوت القصف لم يعد يثير بي الخوف من فترة . فكرة الموت ما عادت تسبب لي أي شعور بالكآبة . وصلت إلى حالة غريبة من التسليم واللامبالاة . كل ما يشغلني الآن هو كيف أجعل الساعات الثقيلة تمر . يلا حان وقت اللعب ، سألعب «بيت بيوت» .

facebook.com/the.Boooks

-١٦-

أفقت في الصباح على رائحة قوية تزكم أنفي مصدرها غرفة جدتي . يا ربي ماذا أفعل الآن؟ وضعت عليها كل مكعبات الثلج التي وجدتها في الفريزر ، لكنها ذابت في ساعات . ستي ! كانت رائحتك أزكى من المسك ! ستي ! تعبت يا ستي . حتى أنت أصبحت بعيدة . كنت «أتونس» بصحبتك ، كنت أراك ! جسدك الساكن كان صحبة لي على الأقل . كنت أحدثه . لم تكوني تجيبين ، لكنك كنت هنا ، بقربي ، أمام ناظري . أما الآن فعلي أن أغلق باب غرفتك بإحكام وأبتعد عنها قدر الإمكان . الرائحة لم تعد تطاق . آه يا ستي ما كان أزكى رائحتك ! لن أنساها أبدا . هي لم تكن رائحة عطر ، ومن أين لك العطر؟ إلا أنها كانت مميزة ، أستطيع الاستدلال بها على قربك حتى في غرفة مظلمة . هي مزيج من رائحة صابون خاص لا أدري من أين كنت تحضريه . تختلط برائحة ملابسك النظيفة وأحيانا برائحة الحنة التي تصبغين بها شعرك . كنت أحب رائحة شعرك . حين كنت تنامين في بيتنا كنت أصر أن تنامي في غرفتي أنا ووفاء ،

facebook.com/the.Boooks

لأشم رائحتك الطيبة وأستمتع بحكاياتك . « يا ختي يا بدور سنو لمواس وحضروا لقدور» ! آه يا ستي كم من السكاكين المسنونة تتربص بأعناقنا ! تريد جزها . ها هم قد جزوك ، وأنا ينتظرني المصير نفسه . لم أعد آمل بالنجاة . القصف أصبح مرعبا والمقاومة توقفت تقريبا . لا أكاد أسمع أصوات إطلاق نار من المخيم . المخيم أصبح مفعولا به الآن ، يتلقى القذائف ولا يقوى على الإجابة . أنت بعيدة الآن . دونك بابك المغلق على رائحة الموت التي باتت تزكم أنفي . لا أستطيع حتى الاقتراب من غرفتك . يا حبيبتي يا ستي . وبدأت أنوح عليها كأنها ماتت لتوها . بقيت أصرخ : ستي! ستي! ثم فجأة سمعت وكأن شخصا آخر يردد الكلمات نفسها ، بسم الله الرحمن الرحيم ! هل أصبح البيت مسكونا؟

- ستي . ستي !

يأتي الصوت قويا .

- ستي إفتحي .أريج . أريج !

يا ربي ! يا ربي ! غير معقول . هذا صوت هاني ! كاد قلبي يقفز من مكانه .

- هاني ! هاني !

- افتحي يختي . افتحي .

ركضت إلى باب المدخل . الباب مغلق بالمفتاح .

- هاني . هاني .

facebook.com/the.Boooks

- افتحي يختي بسرعة . إحنا مكشوفين .

- هاني الباب مسكر بالمفتاح ، رايح أدور عليه .

- اسرعي .

ركضت إلى الداخل كالمجنونة ، فتحت كل الأدراج ، بحثت في كل الأماكن المحتملة . لا أثر للمفتاح .

- أريج يلا يختي !

بدأت أبكي بهستيريا وأصيح : مش لاقية المفتاح ! مش لاقية المفتاح .

- طيب طيب إهدي !

جاء صوته .

ثم فجأة فتح الباب . خلعوه ، واندفع أخي هاني مع ثلاثة من المسلحين .

- أخوي حبيبي ! أخوي ! إنت حي؟

حضنته وأمطرته بالقبلات . عصرني بذراعيه القويتين .

- إنتي بخير؟

- أنا بخير

- وستي؟

أجهشت بالبكاء .

- مالك؟ شو هاي الريحة؟

- هاي ستي .

قلت وسط نشيجي .

facebook.com/the.Boooks

- طيبي ، طيب ، روقي .خلص

قال هاني للشباب معه : لازم نطلع ستي من هون .

اعترض أحدهم : خطر ، القصف بلش يشتد . شكلهم ناويين يقتحموا .

- معلش ، أنا ومروان بنطلعها ، وإنتي ورامي إطلعوا فوق السطح ، نص ساعة وبنرجع .

صرخت : هاني بديش تروح . خليها ستي هون . بديش تطلع .خطر عليك .

- لا ما تخافي . نص ساعة وبكون راجع .

- هاني خليها ستي هون ، شو عليك؟

- يختي ما بصير ، الجو بلش يحما ورح تقوى الريحة ، خطر عليكي . يلا رامي ومعاذ اطلعوا عالسطح . مروان شيل معي ، رامي ومعاذ أمنونا .

_اسمع ، تعال نستكشف المنطقة قبل ما نطلع ، إحنا قراب من مدخل المخيم وما بيصير نجازف هيك .

قال مروان .

- ماشي يلا . أريح ، شوي وراجعين .

خرجا ، وقبل أن أستوعب سمعت إطلاق نار كثيفا وصرختين حادتين ، ثم ارتطام أجساد بأرض الشارع .

بدأت أصرخ بأعلى صوتي . أصرخ ، أصرخ ، أصرخ ، وليس هناك من يسمعني . اندفعت نحو الباب كالمجنونة لكن

facebook.com/the.Boooks

معاذ الذي نزل راكضا عن السطح على إثر صراخي أدركني قبل أن أخرج ، وشدني إلى الداخل .

- تعالي يا مجنونة ، بدك تموتي؟

صحت وسط دموعي : آه بدي أموت ، بدي أموت ! هو أنا أغلى من هاني؟ خلص ، ماليش عيشة أنا ! تعبت ، تعبت يا الله ! يا الله ! وينك؟ وينك؟ سامعني؟ تعبت !

وتابعت نشيجي .

أمسك معاذ بيدي وقادني إلى الحمام .

- إغسلي وجهك .

- بديش أغسل وجهي ، حل عني! روح من هون ! روحوا من هون كلكم !

- طيب طيب تعالي .

فجأة سمعنا صراخا حادا فوق السطح .

- راح رامي ! راح رامي !

صرخ معاذ ، واندفع إلى السطح

صحت به : تطلعش ! تطلعش !

لم يسمعني ! صعد الدرج راكضا ، وما كاد يبلغ السطح حتى سمعت صرخته . قتل ! خلص! لم يبق أحد ! مات الجميع ، وبقيت هنا وحدي . بقيت على تاليهم . غريب ، ماتت مشاعري كلها . لم أعد أحس حتى بالحزن . أحسست بتعب لا أستطيع وصفه . تعب جسدي وتفكيري وانفعالاتي ،

facebook.com/the.Boooks

وحتى أحاسيسي . نظرت إلى كراستي التي أكتب فيها ، كانت ملقاة على الأرض كجثة . ما أكثر الجثث ! كل ما حولي جثث . جثتان على السطح ، وجثة في غرفة جدتي وجثتان أمام البيت ، وأنا الوحيدة الحية . لا ، أنا أيضا جثة . ليست بي نبضة حياة واحدة . يا ربي ، لو أموت الآن ! لو تدخل قذيفة من الشباك وتريحني ! لو ، لو ، لو أموت لو أموووووووت . . لو أممممممممووووووت . . . .

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

عودة إلى المخيم

facebook.com/the.Boooks

- ١ -

أجريت اتصالات ببعض الصحف العبرية ، سألتهم إن كانوا معنيين بنشر ولو أجزاء من يوميات أريج ، أولاد القحبة ، سخروا مني .

في أجواء القتل هذه من سيعنيه خدش الصورة المثالية للفلسطيني : الإرهابي ، الحاقد ، المتجرد من الإنسانية . من يريد أن يقرأ قصة حب ساذجة ولكن في غاية الشفافية بين فتاة رومانسية من مخيم جنين وشاب خارج على قوانين مجتمعه؟ من يريد أن يسمع أصواتا غير تلك التي اعتادها؟ لا فائدة ! نحن نغوص في الوحل مغمضي العيون وأصابعنا في آذاننا . نرد الإرهاب بمزيد منه . نقتلهم ، ثم يقتلوننا ثم نقتلهم ، ولا يتوقف أي منا ، لا نحن ولا هم ، لالتقاط الأنفاس والتفكير قليلا ، لعل هناك طريقا أخرى ! كلانا ينظر إلى الأمام ويجري كالمجنون . لا يتلفت يمينا ولا شمالا ، أما النظر إلى الخلف فهو ربما من الموبقات .

شوشانا اتصلت بي صباح هذا اليوم ، كانت تريد أن نلتقي لكني اختلقت أعذارا كثيرة . لا أريد لقاءها ، وهي لا تريد أن

facebook.com/the.Boooks

تفهم . بكت وهي تقول لي : «أنا في صفك ديفيد ، وأريد أن أساعدك . مهما كان الذي يؤرقك أنا في صفك . أعطني فرصة لأساعدك» .

لم أتأثر كثيرا لحميميتها . أصبحت قاسيا جدا في تعاملي مع بني قومي ، حتى والدي ووالدتي . أما أصدقائي فلم أتصل بأي منهم منذ عودتي من جنين .

نصب عيني الآن هدف واحد لا غير : يوميات أريج . أريد أن أنشرها . أريد أن يقرأها هؤلاء الغارقون في مسلماتهم المطمئنون إلى قناعاتهم المريحة . لا أظن أنها ستخز الكثيرين منهم لكني لا أريدها أن تبقى حبيسة جدران الصمت . صوت أريج يجب أن يخرج إلى العالم .

طلبت من ليلى أن تساعدني ، لديها اتصالات بدور نشر . لست متفائلا لكني سأبقى أحاول .

وفي بيت عائلتي بدأت والدتي تضايقني أكثر بأسئلتها وتعبيرها عن قلقها . أتركوني وشأني . والدي هو الأكثر عقلانية . حاول التحدث إلي ، اقترح أن أرى طبيبا نفسيا ، بل واقترح واحدا يعرفه . قلت له أن لا حاجة بي لذلك وأنني سأتدبر أمري . لم يلح وعاد لحياته . هو اقتصادي ، ويعمل في بورصة تل أبيب . أمور البورصة ليست على ما يرام هذه الأيام رغم نجاح عملية «الدرع الواقي» ، الخوف من التفجيرات يصيب المستثمرين بالهلع ، خاصة الأجانب منهم ، وإن كانت نتائج

facebook.com/the.Boooks

العملية العسكرية أتت بتغيير إيجابي طفيف .

لم يتصل جوليانو ، وأخشى أن لا يتصل . لا بد أنه ارتاب في أمري ، لم أقدم له ما يكفي من الشرح حول دوافعي ، وكيف له أن يخمن لوحده؟ سأنتظر بضعة أيام ثم أحاول الاتصال به . سأحدثه عن كل شيء . لا بد أن أحوز ثقته . أريد العودة إلى المخيم حيث تركت بصماتي القاتلة ، أريد التكفير ، أريد تتبع خطى أريج الشايب . أصبحت مسكونا بها . بهتت صورة آنا فرانك في وجداني منذ لقائي أريج . لا ، لم تتغير مكانتها ولا خدشت رمزيتها ، لكنها حصلت على ما تستحق من اهتمام العالم بها ، الكل يعرف قصتها ، الكل يحاول أن يعظ العالم باسمها . أما أريج فما زالت حبيسة الصمت . أريد لصوتها أن يخرج إلى العالم . لا بد أن يخرج . هذه منذ الآن رسالتي .

facebook.com/the.Boooks

- ٢ -

أخيرا اتصل بي جوليانو ودعاني إلى لقاء آخر . التقينا في المقهى نفسه . علمت منه أن والدته ، آرنا ، السيدة التي رأيتها في الصورة إلى جانبه ، والتي وجدتها في الشقة-المسرح في المخيم ، كانت قد أسست مشروعا للأطفال هناك . شيئا يشبه الفرقة المسرحية ، بهدف مساعدة الأطفال على التغلب على صدماتهم النفسية . الصدمات التي يسببها الاحتلال ، نحن . أخبرت جوليانو أن مشروع والدته بات أنقاضا ، بفضلنا . أخبرته أنني رأيت ذلك بأم عيني . كنت كمسيحي يدلي باعترافاته أمام «أبونا» ، ولكنني لم أكن أطمع بعفو سماوي . صحيح أنني كنت أريد أن أتخفف من أعبائي الداخلية . ما فعلته ، ما فعلناه ، يثقل علي . الغريب أن جوليانو لم يفاجأ .

- ألم يصدمك ما رويته؟

- لا أبدا ، ولماذا يصدمني؟

قال ، وأخذ رشفة أخرى من كوب الشاي ، ثم تابع :

- هذا هو ما أتوقعه .

معه حق . من يتوقع غير هذا منا؟ في النهاية كل شيء

facebook.com/the.Boooks

مشروع في مواجهة الإرهابيين ، أليس هذا ما نسمعه في البيت وفي المدرسة وعبر أجهزة التلفزيون؟

أخبرني جوليانو أنه سيقوم بزيارة للمخيم للاستطلاع ، يريد لقاء بعض أصدقائه من الشبان هناك ، أو من بقي منهم على قيد الحياة . وكذلك يريد التخطيط لمتابعة مشروع والدته التي خسرت معركتها مع السرطان قبل فترة .

– هل أستطيع أن أرافقك؟

سألت بلهفة .

تأمل بي مليا ولم يجب .

– أما زلت لا تثق بي؟

– ليست هذه هي المشكلة . إن وثقت بك أنا ، فهل يثق بك أهل المخيم؟

فعلا ، لماذا يثق بي من كنت أطلق عليهم النار قبل أسابيع قليلة؟ لماذا يرحبون بدخولي مخيمهم زائرا وأنا دخلته غازيا قبل فترة ليست طويلة؟ بدأت أحس باليأس . صمت كلانا وتابعنا ارتشاف الشاي ، ثم قطع جوليانو الصمت الثقيل : على كل حال سنحاول . تعال معي ، ستقود السيارة ، سأقدمك على أنك صديقي وسائقي .

انتشلتني كلماته هذه من لجة اليأس وأعادت لي شيئا من الأمل .

للمرة الأولى في حياتي أحسست برغبة في أن أقبل

facebook.com/the.Boooks

رجلا . كنت ممتنا له بشكل يفوق الوصف .

- هيئ نفسك لتجربة صعبة .

قال لي ، ثم تابع : ستقابل آثار ما صنعته يداك وأيدي رفاقك .

هزت رأسي . أعرف ذلك ، وأنا مصمم على مواجهته . فعلا ، هذا سيكون ال «Therapy» الخاص بشفائي . أريد أن أواجههم ، أعزل من السلاح ، عاريا تماما . إن قبلوني سيساعدني هذا على التصالح مع نفسي ، وإن لفظوني أكون نلت عقابي .

facebook.com/the.Boooks

-٣-

جاء اليوم الموعود . اتفقت مع جوليانو أن ألتقيه في الناصرة ، ثم ننطلق معا إلى جنين . غني عن القول إنني لم أنم لحظة واحدة تلك الليلة . بقيت أتقلب في فراشي حتى الصباح ، أقلب الاحتمالات ، أستعرض حياتي ، أين بدأت وأين وصلت . كنت أحس بوحدة رهيبة . لم أكن على صلة بأي من أصدقائي ، لم أتحدث مطولا إلى أي منهم منذ عدت من جنين . لم تكن تنقصني مهاتراتهم . سأواجههم بما عندي يوما ما ، لكن ليس الآن هو الوقت المناسب .

أما عائلتي فلا تعرف شيئا عن ما يعتمل في داخلي . لاحظ والداي انطوائي في الفترة الأخيرة ، وعبرت والدتي عن القلق في أكثر من مناسبة لكني لم أبح لهم بشيء مما يعذبني . كنت وحيدا تماما .

سأنطلق عما قليل ، لكن والديّ لا يعرفان شيئا عن ذلك . أردت تجنب المواجهة معهما ، أو على الأقل تأجيلها قدر الإمكان . لا أريد تقديم تبريرات ولا أريد أن أسبب الألم لهما . إن غادرت دون أن يعلما وجهتي سأتسبب لهما بالألم ، وإن

facebook.com/the.Boooks

أخبرتهما سأكون قد اخترت المواجهة ، ولن تكون سهلة .

طلع علي الصباح ولم أكن قد اتخذت قرارا بعد . حزمت بعض ملابسي في حقيبة ، وأخذت حماما ساخنا ثم جلست في غرفة الجلوس ، بانتظار أن يصحو والداي . كان الوقت مبكرا ما زال أمامي ساعة على الأقل قبل أن تصحو والدتي . عدت إلى غرفتي وأحضرت يوميات أريج ، الترجمة العبرية أعني . بدأت بقراءتها من جديد . بيتهم ، أو بيت جدتها حيث وجدتها ، قريب من مدخل المخيم من جهة اليامون . ليس بعيدا من الموقع الذي كنت أرابط فيه مع وحدتي . كانت تكتب وأنا كنت أطلق الرصاص على كل شيء يتحرك ، وأحيانا على لا شيء . كانت تخلق شيئا مجديا جميلا في وقت يمر ولا تدري ماذا يجلب ، بل كانت تخمن أنه سيجلب الموت إن عاجلا أو آجلا ، لكن متى؟ لم تكن تعرف . كانت ترتعد مع كل انفجار ، لكنها كانت تعيد صياغة حياتها ، وحياتي ! وأنا ، كنت قطعة عديمة الأهمية في ماكنة الحرب المقيتة : إضرب فأضرب ، أهجم فأهجم ، أقتل فأقتل ! يحركونني بالريموت كونترول . أنا حر وأعيش في بلد حر ، لكني عبد للأوامر العسكرية ولغسيل الدماغ الذي أخضعت له طوال حياتي . وأريج تعيش في بلد محتل ، تقيد فيه حركتها ، وحتى أنفاسها ، لكنها تحلم ، وفي حلمها توسع حدود فضائها . هي الحرة وأنا السجين . سجين الأنماط والأفكار المبتذلة والأوامر العسكرية .

facebook.com/the.Boooks

- صباح الخير . لماذا استيقظت في هذه الساعة المبكرة؟

دخلت والدتي غرفة الجلوس وما زالت في قميص نومها . كانت تتثاءب . هي ربة منزل ، وعليها أعباء البيت بكاملها ، فلا عجب أنها لا تنام ما يكفي .

- صباح الخير .

لم أبح لها بشيء عن نواياي ، ما زال الوقت مبكرا على المواجهة .

- سأعد القهوة .

عادت بعد قليل بثلاثة فناجين من الإسبريسو . كان موعد نهوض والدي قد حان ، ولم يلبث أن انضم إلينا بعد قليل ، مرتديا ثياب النوم هو الآخر .

- -ما هي الأخبار؟

أخبار ماذا يا والدي؟ كم أمقت أسئلتك الروتينية المفرغة من المعنى هذه . لو تصنعت الاهتمام على الأقل ! لو أعملت فكرك قليلا وتوصلت إلى شيء محدد تسأل عنه !

- لا شيء .

- جيد .

نعم ، حوار عائلي بامتياز ! هو لا يجيد سوى حوار الأرقام . لو كنت أريد الحديث عن نيتي الرحيل فيفضل أن أنتظر مغادرته ، ثم أفتح الموضوع مع والدتي . هي مختلفة . أستطيع التحدث معها ، تظهر عاطفة حقيقية ، تبتسم ، تبكي أحيانا ،

facebook.com/the.Boooks

لا أدري لماذا ، لكني أرى عينيها حمراوين أحيانا ، وأخمن أن ذلك بفعل البكاء .

- ديفيد أريد التحدث إليك .

لا بلاش ، قلت في نفسي .

- ليس الآن ، بعد أن أعود من العمل .

حمدا للرب ، لن يحصل هذا ، فلن أكون هنا حين يعود .

نهض وتركني مع الوالدة .

- ديفيد ، مالذي يشغلك يا ولدي؟

سألتني والدتي ، وهي تنظر إلي نظرات حزينة . اهتمام حقيقي يشع من نظرات صوتها .

- لا شيء .

قلت بلا مبالاة .

- لا تقل لي هذا ، أنا أمك ، وأحس بك . أحس أن شيئا يشغلك .

ثم تابعت : الجميع يلاحظون ذلك .

- أبي أيضا؟

تساءلت بسخرية .

- كم أنت قاس يا ديفيد ! نعم ، والدك أيضا ، وهو يحبك ، أنت ابنه الوحيد . هو يحبك على طريقته . سوف تتأكد من ذلك مساء اليوم . هو أخبرك أنه يريد التحدث إليك .

لم تثر إشارتها فضولي .

facebook.com/the.Boooks

- طيب .

قلت بغير اكتراث .

- ألا تريد أن تحدثني عن سبب هذا التغير؟

- لا شيء هناك البتة ، أنا مرهق فقط .

- طيب حاول أن تغير الجو من حولك ، سافر لو أردت .

أردت أن ألتقط طرف الخيط ، الآن هو الوقت المناسب .

- هذا ما سأفعله .

تساءلت بفرح : فعلا؟ أين ستذهب؟ إيلات ربما أفضل مكان في هذا الوقت .

نظرت إليها ، ركزت عيني في عينيها ، لا مفر من إلقاء القنبلة :

- أنا ذاهب إلى جنين .

شهقت من الصدمة ووضعت يدها على صدرها : جنين؟ لماذا تعود هناك؟ هل أرسلوك في مهمة؟ لكنك أنهيت خدمتك!

لا بد من الاستمرار الآن ، سقط حجر الدومينو الأول .

- لا أنا ذاهب بإرادتي .

ضربت على صدرها بعصبية .

- عند العرب؟!

- عند العرب .

الصدمة في عينيها .

facebook.com/the.Boooks

- لماذا؟ ماذا ستفعل هناك؟ سيقتلونك !

- لا تخافي أنا هيأت الأجواء .

- سيقتلونك هناك ،لن تعود .

- وانفجرت بالبكاء .

خرج والدي من غرفته مهرولا .

- ما الذي يجري هنا؟ لماذا تبكين؟ ماذا قلت لها يا ديفيد؟ ماذا فعلت؟

لم أنظر إليه ،ولم أجب .

- ماذا حصل يا أولغا؟

- ابنك ذاهب عند العرب ،إلى جنين . سيقتلونه هناك .

نظر والدي إلي ،وسأل : هل هذا صحيح يا ديفيد؟

قلت ببرود : نعم صحيح .

- ولماذا؟ أنت تصر على أن تجري وراء المتاعب .

أجبت بعصبية : أريد أن أتنفس هواء نقيا .

صاحت والدتي من بين دموعها : هواء نقيا؟ في جنين؟ بين الإرهابيين؟

- لا أظن أن هناك جدوى من الرد ،ولم أرد . والدي تابع :

- ماذا تريد أن تعمل هناك؟ أخبرني !

لم أجب .

- هل تريد أن تعيش وسطهم؟

رددت بعصبية : نحن نعيش وسطهم ،ألم تلاحظ بعد؟ ما

facebook.com/the.Boooks

اسم صاحب الملحمة التي تشتري منها ستيك البقر؟ أراهن أنه ليس آريه . وما اسم مدير السوبرماركت الذي تشتري منه؟ فلاح ! وإن كنت لا تعرف فهو يقيم وعائلته في شارعنا نفسه ! نحن نعيش وسطهم منذ البداية ، ولكنكم تتجاهلون ! إلى متى؟ إلى متى؟

ردت والدتي برجاء من وسط نشيجها : إذن ما الضرورة للذهاب إلى جنين؟ إن كنت تريد أن تكون معهم فهم هنا ، في الجوار .

لم أرد ، بل نهضت ، وتوجهت إلى غرفتي . حملت حقيبتي التي كنت قد أعددتها وعدت لأودع والدي ووالدتي . مددت يدي إلى والدتي ، لم ترفع رأسها . أردت مصافحة والدي ، لم يمد يده ، بل ركز نظراته في عيني وقال بصوت بارد :

إذا خرجت من الباب الآن فلا تعد ! لا أريد رؤيتك هنا مرة أخرى .

لم أجب ، بل توجهت إلى الباب ، وغادرت . كان عويل والدتي مسموعا خارج الشقة ، بل وصلتني نهنهاتها وأنا أغلق باب مدخل البيت .

facebook.com/the.Boooks

- ٤ -

انطلقنا حوالي العاشرة ، جوليانو إلى جانبي وأنا أقود السيارة . كان ينظر إلي متفحصا بين الفترة والأخرى ، أما زال لا يثق بي؟ لن ألومه لو كان هذا هو الحال ، اما أنا فوثقت به في اللحظة التي قابلته فيها . نبرة صوته فيها دفء غريب . لحضوره كاريزما لم أشعر بمثلها مع أحد من قبل .

- بماذا تشعر؟

سألني .

- شعور مجرم عائد إلى مسرح الجريمة .

لم يعلق . مضت فترة صمت ، ثم قال : حين ترى وضع المخيم سيتفاقم شعورك ، فكن مستعدا .

هززت رأسي ، ثم سألته : هل زرته منذ الاجتياح؟

- لم أزره ، هذه أول زيارة لي بعد اجتياحه ، أريد الاطمئنان على بعض الأصدقاء هناك . وإن كنت لا أتوقع أن أجد الكثيرين منهم أحياء .

بدأ الألم يتفاقم في داخلي . نحن الآن نتحدث عن أشخاص ، لا عن إرهابيين . هم أصدقاء جوليانو ، لهم أسماء

facebook.com/the.Boooks

وملامح ، ضحكات وأحاديث وذكريات معه .

- حدثني أكثر عن مشروع والدتك ، اسمها آرنا ، أليس كذلك؟

- نعم ، دفناها قبل فترة ليست طويلة ، لم نستطع أن نجد مكانا يقبل سكانه بدفنها فيه بسهولة ، ثم وافق أحد الكيبوتسات .

أذهلني ما قاله جوليانو . هل هذا معقول؟ هل نحن بهذه القسوة .

- ولكنها يهودية مثلهم !

ضحك بسخرية ، وقال : حين تغرد خارج السرب يجردونك من انتمائك . لم يغفروا لها أنها كانت تحب المخيم ، أطفاله ونساءه وبؤسه .

نظرت إلى جوليانو خلسة وأحسست بشيء من التفاؤل ، برغم المرارة التي كانت تجتاحني ، هناك أناس استثنائيون بيننا ، رغم كل شيئ .

- حدثني عنها أكثر .

- أنا أفكر بعمل فيلم وثائقي عنها ، ستراه قريبا .

قلت بحماسة : أتحرق شوقا لرؤيته .

اقتربنا من مدخل المخيم ، كان سرب طويل من السيارات الفلسطينية ينتظر السماح له بالدخول ، لكن الجنود أبقوهم ينتظرون دون أن يكونوا هناك سبب ظاهر لذلك . لم يكوتوا

facebook.com/the.Boooks

يفتشون السيارات أو يطلبون أوراق السائقين ، كانوا يتحدثون في ما بينهم ويتبادلون النكات والضحكات بينما السائقون الفلسطينيون ينتظرون . هذه هي «الاعتبارات الأمنية» التي يبررون بها كل شيء . لو أتى إلى هنا كل يهودي مرة واحدة وشاهد ما يجري ، هل ستهتز ثقتهم برواية الدولة؟

نحن تابعنا سيرنا ، لم نتوقف ، بفضل لوحة الأرقام الإسرائيلية .

- هل لاحظت أنهم لا يفتشون السيارات ولا يدققون الهويات؟

ابتسم جوليانو ورد بسؤال : ماذا عنك؟ هل كنت ستعترض على الأوامر؟ انظر إلى الجنود ، كنت واحدا منهم قبل فترة قصيرة .

أحسست بالخجل ، لم أجب .

- هم ينفذون الأوامر بدون تفكير ، غسلوا أدمغتهم على مدى عشرين عاما .

قلت بمرارة : غسلوا دماغي أيضا ، لكن لا عذر لنا . من يفتح عينيه يرى أشياء وأشياء . هناك الإنترنت ، متاحة للجميع .

قال جوليانو : الإنترنت هي الخطوة الأولى . المعرفة وحدها لا تكفي . هناك حاجة للشجاعة والقدرة على الحسم . أنت حزت على المعرفة لكنك شاركت في حصار المخيم .

facebook.com/the.Boooks

شعور غريب ينتابني من تعليقات جوليانو اللاذعة . أتألم ، لكني أشعر بشيء من الرضى رغم ذلك . كأنه يخلصني تدريجيا من شعوري القاتل بالذنب . ينقي روحي من خطاياها .

دخلنا المخيم ، بدأت دقات قلبي تتسارع بجنون ، ثم أحسست بضيق في التنفس .

- هل أنت بخير؟

سألني جوليانو

- لست بخير إطلاقا .

أشرت إلى ركام المنازل المهدمة ، وقلت بصوت مخنوق : شاركت بكل هذا .

لم يعلق جوليانو ، بعد فترة سألني : هل تستطيع مواصلة القيادة؟

- نعم

وصلنا إلى وسط المخيم ، نزلنا من السيارة . تجمع أطفال ، فتيات وفتيان ، نسوة ورجال حولنا وبدأوا الحديث إلى جوليانو . عانقه بعضهم . سألهم عن أحوالهم بود ، وقدمني على أنني صديقه وسائقه ، حسب الاتفاق .

أبدى جوليانو ملاحظة على شيء لفت انتباهي أنا أيضا .

- أنتم تضحكون وتمزحون ، كأن شيئا لم يحدث .

قالت امرأة شابة مبتسمة : نعم ، معنوياتنا عالية ، لم ينالوا

facebook.com/the.Boooks

منها ، ولن ينالوا منها .

لكن امرأة أخرى انفجرت بالبكاء : لا ، لسنا أبطالا . هذه ليست حياة . دفنوا أبناءنا في قبور جماعية .

سأل جوليانو النساء إن كن يذكرن والدته .

- كيف لا نذكرها؟

- الله يرحمها ويجعل مثواها الجنة .

- حزنا حين علمنا بخبر وفاتها ، كانت أم الجميع .

- تعيشوا .

قال جوليانو .

تركناهم وتابعنا سيرنا . وصلنا إلى مكان مألوف ، بدأت أرتجف ، لحسن الحظ كنت وجوليانو وحدنا .

- ما بك؟

- أنا جئت إلى هنا قبل الآن .

صعدنا الدرج وسط الركام . وصلنا مدخل ما كان شقة تزخر بالحياة . تحولت إلى أنقاض .

- هنا كنا نجري البروفات .

قال جوليانو ، وهو يحاول أن يفتح لنفسه طريقا وسط الركام .

بدأ الركام فجأة يعود إلى الحياة . جوليانو يتحدث وقطع الإسمنت تتحول تدريجيا إلى قطع أثاث ، وأطفال بملابس مستعارة لملوك وأميرات ، خدم وجنود ، موسيقى تصدح في

facebook.com/the.Boooks

المكان ، أضواء تشع . عاد المكان إلى سابق عهده : مسرحا وممثلين . جوليانو يلقي بتعليماته للفتية والفتيات ، يبدي ملاحظاته ، يقدم توجيهاته ، يمازحهم وهم يضحكون .

تقدم باتجاه غرفة أخرى محاولا في سيره أن يتفادى التعثر بما ازدحمت به الأرض : هذه كانت غرفة نومنا ، هنا كنا ننام .

قال ، ثم خرج إلى الشرفة . ألقى نظرة على المخيم . لا أدري بماذا كان يفكر . استمر صمته وتأمله فترة طويلة . ثم جاء صوته فجأة :

- لكننا سنعيد بناء كل شيء .

كان صوته مختلفا هذه المرة ، فيه حياة وتصميم . ابتسمت رغما عن المشاعر المدمرة التي كانت تتنازعني . قلت بصوت فيه حماسة فاجأتني : نعم ، سنعيد بناء كل شيء . أرجو أن تقبلني في فريقك ، أريد أن أعيد بناء بعض ما دمرت . هل تقبلني معكم ، جوليانو؟

ربت على كتفي وقال : مرحبا بك . تعال معي . أريد أن ألتقي بعض المعارف . يجب أن نبحث عن مكان نقيم فيه . أمامنا مهام شاقة ، هذا المكان ليس صالحا لنومنا .

قلت ، والحماسة ما زالت تسيطر علي : بل سأنام هنا إذا لم يكن لديك مانع . سنزيل الركام ونعيد ترميم المكان . سأنام في هذه الغرفة ، غرفة نومكم السابقة . أتركني هنا أعمل واذهب للقاء أصدقائك .

facebook.com/the.Boooks

نظر إلي مترددا : هل أنت متأكد؟ ربما استطعنا أن نجد شقة صغيرة نقيم فيها .

- لا حاجة لذلك .

قال : ربما كان معك حق . هذا سيكون حافزا لنا لسرعة ترميمها . سأستعين بالشباب .

صمت قصير ، ثم تابع بمرارة : أعني من بقي منهم حيا .

عند هذه الملاحظة أطرقت بالأرض ، وددت لو أستطيع أن أبكي ، ربما ساعدني ذلك ، لكني لم أستطع .

تركني جوليانو ، على أن يعود بعد بضع ساعات . خلعت سترتي وباشرت العمل .

facebook.com/the.Boooks

- ٥ -

عاد جوليانو بعد قرابة ساعتين ومعه مجموعة من الفتية . قدمني لهم .

- هذا صاحبي ديفيد . إحنا كلنا بدنا ننظف الشقة هاي ، وبعدين بدنا نبني مسرح كبير .

هلل الفتية ، وتساءلوا : كيف يعني مسرح؟ خشبة ومقاعد وكل إشي؟

- كل إشي . أضواء وموسيقى كمان ، وعروض يحضروها ناس كتير . يلا خلينا نبلش الشغل . الليلة بدنا ننام هون . لازم ننظفها .

أحضر الفتية عربات وجواريف وأدوات أخرى . عملنا ما يقرب من الساعات الثلاث ، ثم جاءت امرأة شابة معها صينية عليها طعام .

- هذا غداكم .

قالت وابتسامة على شفتيها .

- يسلموا إيديكي إم علي .

قال جوليانو . رددت خلفه كالببغاء : يسلموا إيديكي إم علي .

facebook.com/the.Boooks

- صحتين وعافية .

أجابت .

تناولنا الغداء . أكلت بشهية غير طبيعية . لا أدري إن كان الطعام بهذه اللذة أم أنني بدأت أجد نفسي . كان طعاما بسيطا على أي حال : بيضا مقليا ، بندورة مقلية وبطاطا مقلية . كله مقلي بزيت الزيتون . كان هناك زيتون أيضا ولبن رائب وخبز عربي . كان الطعام لذيذا بلا شك .

مع حلول الظلام كنا قد انتهينا من تنظيف غرفة النوم . أحضر لنا الفتية فراشا ، وانصرفوا . عادوا مرة أخرى ومعهم شاي وساندويشات فلافل . بقي اثنان من الفتية لتناول الطعام معنا بعد انصراف البقية . أحدهما يدعى سمير والثاني يوسف .

- احكولي عن معاذ ، كيف استشهد؟

سأل جوليانو ، بدأ قلبي يدق بعنف ، أحسست أن الحالة التي داهمتني في الطريق ستعود إلي ، لكنني حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أتماسك .

بدأوا برواية قصة مقتله . بقي حيا حتى بعد انسحاب الجيش من المخيم . بدأ يحس بشيء من الأمان . كان قد ولد له طفل في أثناء الاجتياح . أحس بالحنين لزوجته وأراد رؤية طفله . يبدو أن البيت كان مراقبا . خلال ساعة من وصوله داهمت فرقة من «المستعربين» المكان ، وطوقت البيت . استطاع

facebook.com/the.Boooks

بشكل لم يفهمه أحد التسلل من المنزل . رأوه ، تبعوه ، أطلقوا النار عليه وقتلوه .

- أعدموه إعداماً .

قال سمير ، وتابع :

-كان ممكن يمسكوه . هو كان بدو يبعد عن بيت أهله عشان ما ينصابوا بأذى . ما كان بدو يستسلم ، بس كانو بيقدروا يمسكوه لو بدهم .

- أضاف يوسف : كان مسلح بس ما استخدم سلاحه . كان يجري وطخوه براسه من ورا .

-الله يرحمه .

- قال جوليانو .

- بعد أن انصرف الشابان سألني : ما هو شعورك الآن . هل تستطيع البقاء؟

-ليس معي خيار يجب أن أسير في الطريق إلى آخره .

-طيب ، لنرقد الآن ، أمامنا يوم عمل شاق في الغد .

facebook.com/the.Boooks

- ٦ -

أيقظنا الفتية في الصباح ، أحضروا لنا الشاي الساخن وإفطارا مكونا من الحمص والفلافل الطازج . أكثر من مرة داهمتني رغبة بالبكاء ، قبل أسابيع قليلة كنت هنا أطلق النار ، والآن عدت ضيفا يحظى بواجب الضيافة العربية ، يقدم له الطعام من مثل أولئك الذين ما كان ليتردد في إطلاق النار عليهم قبل فترة وجيزة . أي فظاعة هذه !

– بدي أزور أهل علاء .

قال جوليانو .

– حاضر ، بعد الفطور بنروح .

أجاب سمير .

مرة أخرى أكلت بشهية نادرة ، لم آكل بهذه الشهية من شهور طويلة . كنت صامتا ، لغتي العربية لا بأس بها ، لكن لم تكن بي رغبة بالحديث مع أولئك الفتية ، مع أني ما جئت إلى هنا إلا لأقيم علاقة معهم وأتحدث إليهم . كنت أحس بارتباك حيالهم . من هم بالنسبة لي؟ أعدائي الذين جئنا إلى هنا قبل بضعة أسابيع لاصطيادهم؟ ومن أنا بالنسبة لهم؟ ضيف

facebook.com/the.Boooks

يكرمونه ، يجاملونه ويقدمون له الطعام . مع أنهم يعرفون أنني يهودي ، إسرائيلي . ماذا لو عرفوا من أكون؟ ماذا لو بحث لهم بكل شيء؟ سأخبرهم بالتأكيد أنني عدت صديقا ، وأترك لهم حرية التصرف . ربما قتلوني ، ولكن ألا أستحق ذلك؟ قطع يوسف حبل أفكاري : إحنا بنسبقكم على بيت أبو علاء نحكيلهم إنكم بدكم تزوروهم ، وبيرجع حدا منا يوخذكم .

- طيب .

قال جوليانو .

انصرف الفتية وأخذوا معهم الاطباق وبقايا الطعام .

- Take it easy

قال جوليانو الذي لا بد كان يتابع العذاب الصامت الذي كان ينهشني .

- I wish I could

أجبت بالإنجليزية بدوري .

نظر إلي وقال : إسمع ، أنا سأقيم هنا ورشة مسرحية ولكن لي هدف آخر . سيكون الموضوع نوعا من العلاج النفسي لفتية وصبايا المخيم الذين رأوا الأهوال . أريد أن أساعدهم على التخلص من الرعب في داخلهم . اعتبر نفسك تخضع معهم للعلاج نفسه . أنت تعاني من شيء مختلف ، وستكون في وضع مختلف ، لكنك قد تشفى بدورك مما تعاني منه .

كنت مطرقا في الأرض في أثناء حديثه .

facebook.com/the.Boooks

- يا ليت ذلك يحصل .

- لنحاول . والآن اغسل وجهك إن لم تكن قد فعلت . أحضر الفتية بعض الماء في زجاجات بلاستيكية . ستجدها في الحمام .

دخلت إلى المكان الذي كان الحمام قبل أن نحوله إلى ركام . كنا قد حاولنا تنظيفه يوم أمس ، ونجحنا إلى حد بعيد . كانت المهمة الأصعب تسليك مجرى المرحاض الذي سدته الأتربة وقطع الإسمنت .

غسلت وجهي وعدت إلى جوليانو . وجدت سمير قد عاد لاصطحابنا إلى منزل العائلة التي أراد جوليانو زيارتها .

facebook.com/the.Boooks

- ٧ -

طرق سمير الباب الخارجي ثم دفعه ودخلنا إلى باحة مليئة بالزرع . أصص ورد وأحواض زرعت فيها نباتات مختلفة تبينت منها الفلفل الأخضر والبندورة . وكانت هناك شجرة تين ضخمة لا أدري كيف نمت وسط الباحة . كانت في استقبالنا العائلة بأكملها : ثلاثة أجيال منها : الجد والجدة ، شابتان دون الثلاثين ، متزوجتان ولديهما أطفال كانوا يتراكضون في المكان . هب رب العائلة وعانق جوليانو ، كذلك نهضت الأم واحتضنته بعاطفة واضحة . ثم قدمني للجميع على أني صديقه ، جئت معه إلى المخيم لمساعدته في إعادة بناء المسرح ، «الذي هدمه الإسرائيليون» ، أي بنو قومه ، فجوليانو ليس فقط إسرائيليا ، بل أمه ، آرنا ، معبودة المخيم ، يهودية أيضا . كيف يعالج هذا التمزق في الانتماء؟ وهل يعاني منه أصلا؟ لا يبدو ذلك ، فانتماؤه هو هنا ، قلبا وقالبا . تكفي رؤية الحرارة التي يعانق بها الأهالي ويسأل عن أحوال عائلاتهم ، فردا فردا ، كما فعل الآن . بدأت الجدة ، التي هي والدة علاء بالحديث عن أبنائها وبناتها ، في أثناء ذلك سمع جوليانو صوت أحد الأشخاص فهب واقفا ، وقال :

facebook.com/the.Boooks

- هذا مجد .

توجه إلى البوابة وصاح به : مجد !

فجاءه صوت من الخارج ، ثم ما لبث أن فتح الباب ودخل شاب طويل قوي البنية ، عانق جوليانو بحرارة .

قال جوليانو مازحا : شو هذا يا زلمي؟ صرت أطول مني . كنت حتى ما توصل لرقبتي .

رد الفتى ضاحكا : وانت كمان كبرت وختيرت .

وأطلق ضحكة .

رد جوليانو يغضب مصطنع : شو ختيرت؟ واحد زيك اللي بختير !

- ولا شو ، مربي هاللحية ، وشعرك طويل . شكلك صاير زي الختيارية .

- تعال ، أدخل ، بلا حكي فاضي ، قال مختير قال .

دخل الاثنان وجوليانو يضع يده على كتف مجد ، وخاطب العائلة : -شايفينو هذا اللي عامل حاله زلمي كبير؟ كان يمكن يشخ تحته لما آخر مرة شفتو فيها .

وانفجر الجميع ضاحكين ، ثم بدأ مجد يروي ذكرياته :

- متذكر المسرحية؟

رد جوليانو مبتسما : آه طبعاً متذكرها ، القنديل الصغير .

قال مجد بحزن : ما بقي حدا من اللي مثلوا فيها غيري ، كلهم استشهدوا .

facebook.com/the.Boooks

جلس مجد وسط العائلة وتابع حديثه : من أكم يوم كنا نتفرج عالشريط .

- أي شريط؟

- شريط المسرحية .

قال مجد ، وتابع : لما كنت أنا وعلاء بدنا نجيب الشمس عالقصر . هو اللي كان بدو يجيبها ومش عارف ، قلت له لو انا وإنتي بنتعاون بنقدر نجيب الشمس عالقصر . قال لي كمان إنتي يا حمار بدك تجيب الشمس عالقصر؟

ضج الجميع بالضحك . كانوا يضحكون بصفاء ، كما لو أن حياتهم لم تتحول إلى ركام . كما لو أن ابنهم لم يقتل قبل أسابيع قليلة . وهذا الشاب الذي كان ينثر النكات هنا وهناك كان مطلوبا للسلطات ، وربما يعتقل أو يقتل في أي يوم . لم يبد متوترا أو قلقا ، مع أني لا أستطيع أن أتخيل أن داخله بهذا الصفاء الذي يعكسه حديثه وملامح وجهه .

كان رب العائلة يرتدي بنطالا ويعتمر كوفية بيضاء وعقالا ، أما الوالدة فكانت ترتدي ثوبا فلاحيا مطرزا .

سأل جوليانو فجأة :

- بتتذكر يا مجد أول مرة التقينا فيها؟

هز رأسه مبتسما : طبعا بذكر .

- إيمتى كان هذا؟

- يوم ما هدوا اليهود دارنا .

facebook.com/the.Boooks

_أيوا بالزبط ، وبتتذكر إنتي يومها رسمت إشي .

- بتذكر .

قال مبتسما .

- شو رسمت؟

- بيت مهدم .

- وشو كان فوق الركام؟

- علم .

- علم فلسطين .

- صحيح .

أحضرت إحدى الفتيات صينية عليها الشاي . كنت طوال الوقت صامتا ، أستمع إلى الحديث الذي يدور وأحاول أن أحدد لي موقعا . أنا واثق أن ولدهم لم يسقط برصاصي أنا ، فهو سقط في مكان لم أصله ، حسب ما علمت ، وفي معركة أنا واثق أنني لم أشارك بها ، حسب ما روى مجد . ولكن هل هذا مهم؟ قد أكون قتلت أحدا من رفاقه . وأنا الآن أجلس في باحة بيتهم وأحتسي شايا لذيذا بالنعنع . أتأمل وجوه هؤلاء الناس بين رشفتين . كيف لم يسألوا عن أصلي وفصلي؟ واضح أنني إسرائيلي ، يهودي من ملامحي ، من طريقة نطقي للعربية . كيف لم يشكوا في أمري؟ ربما ثقتهم بجوليانو كانت وراء ذلك .

فجأة بدأت الوالدة تروي قصة مقتل ابنها : يوم ما استشهد

facebook.com/the.Boooks

سـخنت له مي والحـمم ، وكنت أغنيلو ، زي العـريس . وهو يضحك . سألته : بدكش تتجوز يما؟ نشوف لك عروس حلوة وعينيها خضر؟ ضحك وسألني : يعني ضروري يكونوا عينيها خضر؟ قلت له لع يما زي ما بتحبها إنت ، ليش هو أنا اللي بدي أتجوزها؟ أنا بدي إياك تسعد يا حبيبي ، واشوف ولادك حواليي قبل ما أموت . ما عجبه الحكي ، قال لي يما تظليش تفكري بالموت إنتي ماشالله صبية . عملت له فطور ، قال لي يما اقعدي إفطري معي ، قلت له سبقتك يما صحتين . وبعدين طلع ، قال لي يما أنا رايح على شغلي ، بدكم أجيب إشي معي وأنا راجع ، قلت له سلامتك يما . كان طول الوقت يتطلع في البيت ويتطلع فيي بشكل غريب ، كأنه بيودعنا . طلع وما رجعش .

وبدأت دموعها تسيل . وأطرق الجميع . ساد صمت قطعه جوليانو قائلا : الله يرحمه . بدي أزور قبره ، تيجي معي مجد توريني قبره؟

وقفنا وتوجه ثلاثتنا إلى المقبرة . فوق قبره رأيت جوليانو المسيحي ، اليهودي يقرأ الفاتحة . تمنيت في تلك اللحظة لو كنت أعرف الفاتحة ، لكنت قرأتها أنا أيضا . بدأت تنتابني مشاعر غريبة ، أحسست كأني أخلع جزءا من ذاتي هنا . أتخفف منه . تمنيت لو أستطيع أن أرم داخلي بالمشاعر التي اكتسبتها هنا ، تسلل الكثير منها إلى داخلي لكنه بدل أن يلتحم مع ما تبقى من أناي أجج الصراع القائم بدرجة أكبر .

facebook.com/the.Boooks

أصبح داخلي ميدان معركة .

في طريق عودتنا سألت جوليانو عن مشروعه القادم فم
المخيم ، محاولا أن أجد لنفسي مكانا فيه . أسهب في الشر
عن خطط بدت لي أحلاما مستحيلة . هو يريد أن يبني مسر-
حقيقيا هنا ، ويجعل من فتية المخيم والأطفال الذين شهد
أهوال الاجتياح نجوما في مسرح بخشبة وقاعة وأضواء . يريد أ
يرفع من هذه الأنقاض مسرحا . كان اسمه جاهزا في تلل
اللحظة «مسرح الحرية» ، ولكن باستثناء الاسم لم تكن هنا
غير الأحلام في رأس ذلك الشخص الذي بدا لي في تلل
اللحظة نبيا ، لكنه ، كالكثير من الأنبياء الآخرين ، ولد ؤ
هذه الأرض التي تقتل أنبياءها . ليحرسك الرب يا جوليا:
ليكن مصيرك أفضل من مصير من سبقوك من الأنبياء .

- لماذا تنظر إلي هكذا؟

ضبطني متلبسا .

- لا شيء

طيب خذ راحتك في التأمل والتفكير .

كنت أستعيد كلمات والدة أم أحد الشباب الذين قتل

أنا كنت عارفة إنو بدو يستشهد .

سألها جوليانو : طيب ليش ما حكيتي معه؟ ليش

خليتيه يظل في البيت؟

- والله لو يقتلوني ، لو يطخوني ما بوقف في طريقه .

facebook.com/the.Boooks

- مين هم؟

- اليهود . لو يحطوا البارودة في راسي ما بقول له اقعد في الدار يما .

- وتركتيه يستشهد ولا تهدي عليه؟

- استشهد زيو زي غيره من الشباب اللي زي الورد . كلهم إلهم أهل وكلهم إلهم إميات . وإلهم بلاد ساكن فيها غيرهم ، لكنهم بينطفي شبابهم في بيوت المخيم ، الشمس ما بيشوفوها . إحنا كان إلنا بيت كبير ، دار أهلي يعني . أخذوه ، أخذوا البلد كلها ، الله يوخذهم .

- وين كان بيت أهلك؟

سأل جوليانو

- في بلد اسمها عين حوض .

انتفضت ، كأن أحدهم وخزني بسكين . كنت قد قرأت أن معظم من رحلوا عن القرية استوطنوا مخيم جنين . نطقت ، للمرة الأولى خلال الجلسة .

- إنتي من عائلة أبو الهيجا؟

نظرت المرأة إلي وفغرت فاها : أيوا من عيلة أبو الهيجا ، شو عرفك؟

- أنا بعرف عين حوض . صار اسمها عين هود . كلها يهود هسة ، بس البيوت موجودة ، ما غيروا فيها إشي .

facebook.com/the.Boooks

اتجهت الابصار كلها نحوي ، أبصار الجميع ، بمن فيهم جوليانو .

أصبحت الآن مركز الاهتمام . سألتني المرأة إن كنت زرتها ، أجبتها بالإيجاب . بدأت تصف لي منزل عائلتها ، بالتفصيل ، أبوابه ، نوافذه ، أشجار الرمان في الحديقة ، لكني طبعا لم أتذكره . وعدتها بأن أعود إلى هناك وأبحث عنه وألتقط له صورا أحضرها لها .

لكني كنت أعرف أني لن أفي بوعدي . كنت قد اتخذت قراري . سأغادر ، ولن أعود . سأخوض معركتي وحيدا ، في عزلة ، أو على الأقل بعيدا عن مسرح الجريمة . ربما كان وجودي هنا سيساعدني أكثر على الحسم ، لكنه سيوقع بي جراحا لم أعد قادرا على احتمالها ، لست ممن يفضلون التعمد بالألم . أفضل أن يسود سلام في الخارج بينما أخوض معركتي في الداخل . سأعود إلى غرفتي ، وقهوة أمي الصباحية ، وفي المساء أمارس طقوس التفكير والتحول في أمان .

أبلغت جوليانو بقراري ولم يعترض ، بل أستطيع أن أقول إنني أحسست بأنه تنفس الصعداء ، ولا ألومه .

facebook.com/the.Boooks

-٨-

على مشارف تل أبيب بدأت أعود إلى أناي . عدت ابن المدينة ، ابن الدولة ، ابن الثقافة التي أنتجت كل الحروب والاجتياحات ، والبارانويا . بدأ حضور المخيم الطاغي يخبو بمجرد أن اجتزت الخط الأخضر ، ذلك الخط الوهمي الذي لم يعد له حتى دور جيوبولتيكي . لم أعد إلى الوراء ، لكني ربما عدت إلى نقطة الصفر ، أي فقدت ما حققته في أثناء إقامتي القصيرة في المخيم ومشاهداتي هناك . عدت ربما كما كنت قبل أن أغادر يافا متوجها إلى جنين . ما زلت بالتأكيد مختلفا عن أصدقائي ، رافضا للكثير من الترهات السياسية السائدة ، لكن الدراما داخلي خفتت بدون شك . نعم ، سأتابع جولاتي الداخلية إلى جانب كأس البيرة المثلجة ، لا كوب الشاي بالنعنع ، بكل ما يعنيه هذا . ستكون معركتي مع ذاتي نوعا من الترف الفكري والفلسفي ، ولكنها ستكون بعيدة عن أتون المعركة الحقيقية . لا أظن أن كوابيسي ستنتهي ، وربما احتجت إلى مشورة أخصائي نفسي ، لكني لن أتحول كما كنت أشتهي ، أنا أجبن وأقل قدرة على الحسم من أن أسير في ذاك الطريق إلى نهايته .

facebook.com/the.Boooks

لم أكن قد أحضرت مفتاح شقتنا معي ، كنت أظن أني لن أعود ، ليس في وقت قريب على أي حال .

قرعت الجرس وانتظرت ، لم أسمع صوت والدتي ، ثم سمعت صوت خطوات تتجه إلى الباب . فتح الباب ، طالعني وجه والدي ، بدأت أتدبر ابتسامة ، لكنه فاجأني بوجه متجهم :

- أنت؟ لماذا رجعت؟ عد من حيث أتيت ، إلى العرب ، أصدقائك .

فغرت فمي غير مصدق . هذا كان آخر ما توقعته ، رغم تهديده به حين غادرت بيت العائلة . كبريائي لم يحتمل ، أدرت له ظهري دون كلمة واحدة .

حين استقبلني الرصيف أجهشت بالبكاء . حضرتني وجوه الفتية والنساء في المخيم ، ثم وجه جوليانو ، لكنني لن أعود إليهم . قطعت على نفسي طريق الرجعة وانتهى الأمر .

حاولت أن أكلم شوشانا ، لعل باستطاعتي الإقامة عندها لحين أتدبر أمري . لم ترد . لا بد أنها ستتصل بي حين ترى رقمي . ذهبت إلى بار قريب ، طلبت زجاجة من البيرة . نظرت إلى وجوه الناس حولي وأنا أحتسي بيرتي . أحسست بغربة ، رغم أن البار لا يبعد عن منزل عائلتي ، الذي لم يعد منزلي ، سوى بضع مئات من الأمتار.

أين مكاني إذن؟ لم أجده في جنين بين العرب ولا أجده

facebook.com/the.Boooks

هنا وسط اليهود .كم أحسد جوليانو ، هو حاسم في كل شيء ، ورغم أنه ولد ممزق الهوية أصلا ، إلا أنه حدد هويته بحزم . لماذا لا أستطيع أنا أن أحدد؟ طلبت زجاجة أخرى . بدأت أسترخي قليلا . أعدت الاتصال بشوشانا ، لم أتلق ردا هذه المرة أيضا . غريب! أين ذهبت؟ أعدت المحاولة عدة مرات ثم أخيرا جاءني صوتها : نعم

كان باردا ، غير ودي إطلاقا .

- أنا ديفيد .

قالت ببرود : أعرف من تكون .

سألت مستغربا : لماذا لا تردين على مكالماتي؟

-هل تذكرتني أخيرا؟

طعنة أخرى .

- لماذا تتحدثين إلي هكذا؟ ما الذي حصل؟

قالت بحدة : ما الذي حصل ! أنت تسأل هذا؟

قلت بذل : طيب ، أنا آسف على إزعاجك . مساؤك سعيد .

أغلقت الخط دون أن ترد .

زجاجة بيرة ثالثة . نخب الخيانة . نخب الجبن . نخب التشرد . نخب الضياع . ماذا بقي لي؟ فقدت جوليانو وعائلتي وشوشانا . آه ، نخب المعركة! أم المعارك ! معركة البحث عن الذات . لكن أين أبحث عنها؟ في أي جحيم؟

facebook.com/the.Boooks

وقفت بصعوبة . توجهت إلى الباب وغادرت . لم تكن هناك وجهة محددة أقصدها . تسكعت مترنحا في الشوارع ، ثم وجدت نفسي على الشاطئ . جلست - وأضفت آخر خواطري إلى اليوميات التي بدأت كتابتها منذ فترة . في حقيبتي الآن يوميات لشخصين : أريج الشايب وديفيد أشكنازي . كان الطقس جميلا ، دافئا . أضواء المدينة تنعكس على صفحة المياه . خلعت حذائي ، ثم خلعت كل ملابسي ، لن يلفظني البحر كما لفظني الآخرون . وألقيت بنفسي بين أمواجه . هو واسع وكبير وحنون . أحسست بلسعة برودة مياهه على جسدي ، لا يهم ، برودهم أقسى . توغلت عميقا على ما يبدو ، لأنني لم أعد أرى الشاطئ بوضوح ، ربما البيرة هي السبب ، هل سكرت؟ تابعت السباحة مبتعدا عن الشاطئ ، باتجاه المجهول . بدأت عضلاتي ترتخي ، أحسست بالإعياء . أريد أن أناااااااام . . . . أنا متعب ، بحاجة إلى راحة طويلة ، من كل شيء ، من عائلتي التي تحبني وتريدني أن أنخرط في اللعبة كالآخرين ، أن أضع رأسي وسط الرؤوس كما يقول المثل العربي ، أن أغمض عيني وأصم أذني ، أن ألغي عقلي . وبذلك يكونون سعداء . إذن هم يريدون أن يكونوا سعداء . يريدون السعادة لأنفسهم لا لي . هم أنانيون ، هذا هو حب العائلة ، هو حب الذات لا غير ، يجلبونك إلى هذا العالم لاعتبارات تخصهم أولا وأخيرا ، يربونك على هواهم ، لا يعطونك أي

facebook.com/the.Boooks

خـيـار ، وحين تكبـر ، تسـتـقل ، أو هكذا تتـوهم ، يريدون أن يجردوك من حقك في الاختيار ، بحجة «سعادتك» ، وهم في الحقيقة يفكرون بسعادتهم . لا أظن أنني سأكون معنيا بإنجاب أطفال . لا أدري إن كنت سأثق بامرأة بعد أن خذلتني شوشانا بهذه البشاعة في أصعب لحظاتي . كنت أظنها تحبني . صحيح أنني تجاهلتها لأسابيع ، لم أكلمها ، لم أدعها للقائي ، ولا بد أنها حـقـدت علي ، لكني كنت بحـاجـة إليـهـا الآن ، وهي خـذلتني . خـذلتـني حـتى كـصـديقـة . تبـا للأصـدقـاء ، كل الأصدقاء ، خذلوني جميعا . أنا متعب ، ولا أريد مساعدة من أحد . أغربوا عن وجهي جميعا . كل ما أريده هو الراحة . أريد أن أرتاح . . . أن أرتاح . . . . أن أرتا . . . .

facebook.com/the.Boooks

- ٩ -

وجدت مكالمة من ديفيد حين استيقظت هذا الصباح . حاولت الاتصال به لكن هاتفه كان مغلقا . كررت المحاولة ، مغلق! ثم اتصلت بوالدته . قالت لي بصوت حزين إنه عاد مساء أمس إلى البيت وإن والده طرده . أحسست بالقلق . اتصلت بالشرطة ، لا خبر عنه . ثم اتصلت بقسم الحوادث في مستشفى قريب من مكان سكنه .

– نعم ، هو هنا . هل أنت من أفراد عائلته؟

قلت ودقات قلبي تتسارع : أنا صديقته ، هل هو بخير؟

أجابني الصوت بحياد تام : لا أظن . عثر على جثته في الصباح ملقاة على الشاطىء . يبدو أنه توغل بعيدا في البحر وهو في حالة سكر ، وغرق .

أطلقت صرخة حادة . لم أصدق . كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كلمت الشرطة قبل قليل ولم يخبروني شيئا .

ارتديت حذائي وجريت خارجة من الشقة . أدرت محرك السيارة وتوجهت بسرعة جنونية إلى المستشفى . طلبت رؤيته .

– ولكن هل أنت من أفراد عائلته؟

– هو لا يعيش مع عائلته ، هناك سوء تفاهم عائلي . أنا

facebook.com/the.Boooks

صديقته ، نحن في حكم المتزوجين .

لم يكن هذا صحيحا . لم نكن حتى أصدقاء بمعنى الكلمة ، لكني أحسست به قريبا بشكل مفاجئ في آخر لقاء لنا ، بعد أن ترجمت له يوميات تلك الفتاة من جنين .

كشفت الغطاء عن وجهه . لم تكن ملامحه هادئة . أخذ عذابه وتمزقه إلى العالم الآخر . انفجرت بالبكاء ، ثم أعدت الغطاء إلى وجهه وخرجت .

ما الذي جرى؟ هل انتحر؟ هل كان سكران حقا؟ ماذا جرى هناك ، في جنين؟ لماذا عاد بهذه المرارة؟

- سيدة ليلى .

جاءني صوت الموظفة .

- هل توقعين بعض الأوراق الرسمية؟

هل أفعل؟ لا . يجب أن أخبر عائلته .

- أفضل أن أخبر حماتي .

الكذب مرة اخرى . أردت أن يقتنعوا أننا شبه متزوجين ، أريد أن أستلم متعلقاته . لعله ترك أوراقا . أي شيء يلقي بعض الضوء على ما حصل .

- وجدنا ثيابه على الشاطئ وحقيبة فيها أوراق .

هناك أوراق إذن .

- هذه هويتي الشخصية . أريد الحقيبة .

- لا مانع . وقعي هنا من فضلك .

facebook.com/the.Boooks

- ١٠ -

اليوم أحسست أنني قمت بواجبي تجاهك يا صديقي . أخيرا وافق مدير إحدى دور النشر على قراءة اليوميات ، يوميات أريج ويومياتك . لم يعدني بشيء بعد ، لكنه أبدى اهتماما جديا بالموضوع ، وهذا في حد ذاته يجعلني متفائلة . التفاؤل عملة نادرة هنا هذه الأيام ، لكن كلماتك وكلماتها لن تضيع في العدم . كل ما يحز في نفسي أنك ذهبت وفي حلقك غصة وفي روحك مرارة ، أن الجميع تخلوا عنك . لا ، ليس الجميع ، ديفيد ، ليس الجميع يا صديقي . .

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

المجتمع للأطفال والكبار في جنين ، وسمّاه «مسرح الحرية» .

مسرح الحرية

في عـام ٢٠٠٦ ، تابع جـوليـانومـسـيـرة والـدته عن طريق تأسيس «مـسـرح الحرية» جنبـا إلى جنب مع زكريا الزبيـدي ، القـائد العـسكري السـابق لـكتـائب شـهـداء الأقصى في جنين ومع JonatanStanczak ، الناشط الإسـرائيلي الـسـويدي ، ودرور فايلر ، الفنان الإسرائيلي السويدي ، وهو مسرح ومجتمع يوفر الفـرص لـلأطفـال والشـبـاب في مـخيـم جنين للاجئين لتطوير مهاراتهم ، ومعرفة الذات والثقة واستخدام العملية الإبداعية بوصفها نموذجا للتغيير الاجتماعي .

قـتل جـوليـانوعلى أيدي مـسلحين مـقنعين في أمـام مـسـرح الحرية الذي كان قد أسسه في مخيم جنين للاجئين .نقل إلى المستشفى بالحال ، ولكن فور وصوله أعلنت وفاته .

المصدر : ويكيبيديا

facebook.com/the.Boooks

آنا فرانك

نيليس ماري «آنا» فرانك (١٢ يونيو ١٩٢٩ مدينة فرانكفورت - أوائل مارس ١٩٤٥ معسكر بيرغنبيلسن) كانت فتاة يهودية ألمانية ولدت في مدينة فرانكفورت على نهر الماينفي بألمانيا فايمار، وعاشت معظم حياتها في أو بالقرب من أمستردام في هولندا .اكتسبت شهرة دولية بعد وفاتها بعد نشر مذكراتهاالتي توثق تجربتها في الاختباء خلال الاحتلال الألماني لهولندافي الحرب العالمية الثانية .

انتقلت آن وعائلتها إلى أمستردام في عام ١٩٣٣ بعد أن وصل النازيون إلى السلطة في ألمانيا، وكانوا محاصرين بسبب احتلال هولندا، والذي بدأ عام ١٩٤٠ . ولزيادة الاضطهاد ضد السكان اليهود، عادت الأسرة إلى الاختباء في يوليو ١٩٤٢ في غرف مخبأة في مبنى مكتب والدها أوتو فرانك . بعد عامين، تعرضت المجموعة للخيانة وتم نقلهم إلى معسكرات الاعتقال . وبعد سبعة أشهر من إلقاء القبض عليها، توفيت آنا فرانك بالتيفوس في معسكر الاعتقال بيرغنبيلسن، في غضون أيام من وفاة شقيقتها، مارغو فرانك . والدها أوتو، هو الناجي

facebook.com/the.Boooks

الوحيد من بين المجموعة ، عاد إلى أمستردام بعد الحرب ليجد أن مذكراتها تم حفظها ، وأدت جهوده إلى نشرها في عام ١٩٤٧ . ترجمت عن لغتها الأصلية الهولنديةونشرت لأول مرة باللغة الإنجليزية في عام ١٩٥٢ بعنوان يوميات فتاة شابة .

اليوميات التي كتبتها أنا في كراسة اعطيت لها في يوم عيد ميلادها الثالث عشر ، تروي حياتها من ١٢ يونيو ١٩٤٢ حتى ١ أغسطس ١٩٤٤ . ترجمت إلى لغات كثيرة ، وأصبحت من أكثر الكتب قراءة في العالم ، وكانت أساسا للعديد من المسرحيات والأفلام . عرفت آن فرانك بجودة كتاباتها ، وأصبحت واحدة من أكثر ضحايا الهولوكوست شهرة ونقاشا

المصدر : ويكيبيديا

facebook.com/the.Boooks

روايات أخرى للكاتب صدرت بالعربية

- حجارة الألم ، دار أوغاريت ، رام الله ، ٢٠٠٥ .
- شهرزاد تقطف الزعتر في عنبتا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٨ .
- جسور وشروخ وطيور لا تحلق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٠ .
- يافا تعد قهوة الصباح ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٢ ، (وصلت للقائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية) عام ٢٠١٢) .

facebook.com/the.Boooks

رواية
NOVEL

مقتنعة أن أبي ... وى واحد في الدنيا! أقوى من الضبع
...لذي في حكايات ستي، أقوى من مدير مدرستنا ومن
...الز... في الحارة مجتمعين. أقوى حتى من ...الكاش،
ازع الضخم الذي كنا نراه في التلفزيون. وحين طرق
...د باب منزلنا المتهالك في المخيم هم لم يطرقوه، بل
وه بضربة واحدة ... أعقاب بنادقهم، قفزت من
...اش فزعة على صرخاتهم تتردد في أرجاء البيت. ثم
...ـ أبي يخرج من غرفته، فعاد الاطمئنان إلى قلبي.
...ـ يصرخ فيهم الآن صرخة تزلزل أركانهم، وقد يصفع
...هم صفعة تخلع وجهه خلعا، فيرتعد البقية من الخوف.
أقوى واحد في الدنيا، وسيريهم! ثم سمعته يتحدث
...م، لكن كلماته لم تكن تدوي بل ترتجف، وهو يرجو
...بط بصوت ذليل والضابط يصرخ به، ثم تختنق كلمات
...، أبي يبكي!! أبي!! أقوى واحد في الدنيا، يبكي!!
...لفلة ذات السنوات التسع تنكمش وتنكمش، حتى
...مها كيان آخر، مهزوز، مشروخ بلا حماية.. أبي ليس
...يا، بل هو أضعف ... في الدنيا

ISBN 978-614-41...-376-...
9 786144 ...93...

مكتبة كل شيء
info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

...ـال في خدمة الثقافة العربية
بيروت، المزرعة، بناية
عبد بن سالم، ص. ب: ١١-٥٤٦٠
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com

facebook.com/the.Boooks